المسألة

تجديد الفكر الإسلامي

قضيّة الحقيقة

محمّد الطالبي

مفكّر مسلم قرآني

المسألَة

تجديد الفكر الإسلامي

قضيّة الحقيقة

محمّد الطالب

مفكّر مسلم قرآني

بســــــــــــــــــــــــــــــــم الله الرحمان الرحيم

الحقّ من ربّك. فلا تكوننّ من المُمْتَرين

(البقرة، 2 : 147)

توطئة

لمن هذه التذكرة؟

هذه تذكرة أردناها في غاية الاختصار، نقتصر فيها على بعض المسائل الّتي تُحيّر المسلم اليوم أكثر من غيرها، وما أكثرُها ! فهي مجرّد مذكّرة، سريعة القراءة، يسيرة اللغة بقدر الإمكان، تلبّي، وإن بقدر يسير، *حَيْرة المسلمة* كما تقول ألفة يوسف، ورغبات *المسلم الحزين*، الغريب في عصر الحداثة وغزو الفضاء، كما يصفه حسين أحمد أمين. وقد يبلغ به حدّ الانسلاخ من الإسلام جهرا والسُّخريّة منه، كما يفعل مُؤَسِّسوا جمعيّة "*الأحرار المفكّرين*" *(Libres penseurs)*، أو جمعيّة المرتدّين، أو المُنقبلون أفواجا إلى المسيحيّة، دين المحبّة كما يقولون، واليُسر والسِلم بلا جهاديّين إرهابيّين. دين فرحة الحياة. وقد يكون عددهم بلغ 60.000. إذ تجمّع، في إسلام الشريعة وعلمائها، كلّ ما يجعل منه دين الظلاميّة والعُسر، والحزن والنقمة على الحياة، والاغتيال والإرهاب، إلى حدّ أنّه أصبح يوصف عالميا بدين الشرّ، بل محوره ومَعينه.

هذه التذكرة موجّهة إلى المسلم العادي الحداثي، المثقّف ثقافة عصريّة، تجعله فِعْليّا لا يعمل بالشريعة ولا يتلاءم معها. فهو بين خِيَارين : إمّا العيش بضمير مجروح مكلوم يؤلمه، وإمّا يكفر ويرفض الإسلام جُملة وتفصيلا، ويغسل منه يديه.

المقصود من هذه التذكرة المُصالحة بينه وبين دينه بضمير مرتاح. أقول له : يكفيك، كي تكون مُؤمنا كامل الإيمان، بضمير هادئ مرتاح، أن تُؤمن بكتاب الله، الّذي هو بمفرده مُلزم، وكتاب الله حُريّة، وحَدَاثة ومعاصرة وعقلانيّة على الدوام، وقول الله هو أوّل قول أتى بحقوق الإنسان. يكفيك أن تؤمن بكتاب الله، وأن تعمل بأوامره، وأن تنتهي بنواهيه، ولا حرج أن تَكفر بالشريعة، لأنّها من صنع البشر غير ملزمة، لا حقّ لها أن تطغى، لا هي ولا علماؤها على أحد.

كتاب الله يُحرّرك من طاغوت علماء الدين، الّذين يريدون أن يسيطروا على عقول العباد وعلى تصرّفاتهم، بَغْيا عليهم بغير ما أنزل الله، يُحرّمون ويُحلّون، ويُكفّرون فيقتلون مَن كفّروا ويُرهبون، ويُدخلون هذا إلى الجنّة وذاك إلى النّار، بغيا على الله وعلى مشيئته، ومُشاركة له في الحكم، فيقعون الشِرْك من حيث لا يعلمون، غفر الله شِرْكَهم

بجهلهم. فهم الّذين مزّقوا الأمّة شيَعا، يقتل بعضها البعض، وهم الّذين "*تقطّعوا أمرهم بينهم زُبُرا، كلّ حِزب بما لديهم فرحون*" (المؤمنون، 23 : 52).

لشريعة عُسْرٌ، والقرآن يُسْرٌ. "*يُريد الله بكم اليُسْرَ، ولا يُريد بكم العُسْرَ*" (البقرة، 2 : 185). فإن كان هذا الجُزْء من الآية خاص بالافطار في شهر رمضان في الحالات التي يجوز فيها الافطار، فهو عامّ في مقاصده وغاياته، كما هو الشأن بالنسبة لكثير من الآيات، وقد نبّه إلى ذلك الشافعي في رسالته. ويُؤيّد عُمُومه الحديث المتواتر، والمُلزم لتواتره ولمُوافقته مع القرآن، المَرْوي عن أنس وهذا نَصُّه، كما أخرجه، بأسانيد ثمانيّة مختلفة، أحمد بن نبل (3 : 131) ؛ والبخاري (1 : 27) ؛ ومُسلم (5 : 141) ؛ والنسائي [1] :

" *عن أبي التيَّاح يزيد بن حُمَيْد، قال : سمعتُ أنَسَ بنَ مالك يقول، قال النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم : يَسِّروا ولا تُعَسِّروا ؛ وسَكّنوا ولا تُنَفّروا.* "

في كلّ ما سيلي، نعمل بكتاب الله، وبهذا الحديث الذي يُوافقه. فنقرأ كتاب الله قراءة غائيّة مقاصديّة، وقد سَمّيناها القراءة السهميّة (vectorielle)، لأنّها حَرَكيّة، مُحَيَّنَة (actualisée) باستمرار في نور هداية القرآن. في كلّ ما سيلي نُيَسِّروا ولا نُعَسِّروا ؛ ونُرَغِّبوا ولا نُنَفِّروا. مع الحذر اليقض والشديد من الخروج من مُقاومة سوء السلفيّة الإرهابيّة، إلى الوقوع فيما هو أسوأ : الوقوع في فخّ نِفاق المثقفين التونسيّين المستنيرين بنور عهد الأنوار، والّذين يعملون من أجل إحلال عهد الحداثة على أنقاض الإسلام، على غرار ما وقع في الغرب. الإسلام القرآني هو دين الحقّ والحقيقة، مَن يدين به يملك الحقّ والحقيقة " *لقد جاءكَ الحقّ من ربّك. فلا تكونَنَّ من المُمْترين !* " (يُونُس، 10 : 94) آية خاصّة يُراد بها العامّ.

---

[1] الدكتور بَشّار عوّاد ومَن معه ، *المُسْنَد الجامع* ، بيروت، 1992 ، ج 2 ص 283 عدد 1225 .

الإنسان لُغز

هو لُغز عن نفسه وعن مُحيطه. وهو يحبّ أن يفكّ ما في نفسه وما في محيطه من ألغاز. خاصيّة الإنسان هو أنّه حيوان، كما يقول ابن خلدون في مقدّمته، بلغ عقله في دفق التطوّر أفُقَ الإدراك والتساؤل. فأصبح يتوق بطبعه إلى أن يُدرك، ويعرف ويفهم. وكلّ ما عرف، يتوق إلى أن يعرف، وذلك بتواصل وبدون انقطاع. فهو مَحْكوم عليه بأن يعرف، وبأن يتساءل ليعرف : الإنسان تساؤل، ومَحَلّ تساؤل، ينظر في نفسه، وفي الآفاق لمعرفة الحقّ. والله يحضّه على الإيمان بكتابه، ويَعِده بأنّه سيعرف أنّه الحق، لا بالإكراه، ولا بالمعجزات كما سبق، وإنّما بفضل عقله، وبالتدبّر، والنظر في نفسه وفي الآفاق، وهذا عندنا من إعجاز القرآن. الله يحضّ على المعرفة، وعلى بلوغ الإيمان عن طريق المعرفة.

"*قُلْ : أرأيتم إنْ كان من عند الله؟ ثمّ كفرتم به. مَن أضلُّ مِمَّن هو في شِقاق بعيد ! سَنُريهم آياتنا، في الآفاق، وفي أنفسهم، حتّى يتبيّن لهم أنّه الحَقُّ. أولم يَكْفِ بربّك أنّه على كلّ شيء شهيد ! ألآ إنّهم في مِرْيَة من لِقاء ربهم ! ألآ إنّه بكلّ شيء مُحيط*" (آخر سورة فصّلت، 41 : 52 – 54).

الإنسان، الّذي يريد أن يعرف كلّ شيء، في الآفاق وفي نفسه، أن يعرف الكون كلّه، لُغْز في هذا الكون، لا يعرفُه إلاّ الله. هو وحده يعرف الغاية التي من أجلها خلقه، خلقه كما هو، بكفره وإيمانه، وبكلّ صفاته. الملائكة، في المستوى الأزلي، قبل أن يتمّ خلقه، ويخرجه الله من القوّة إلى الفِعْل، فوجئوا بخلقه على الشكل الّذي خُلِقَ عليه، واعترضوا على خَلقِه، فقال لهم الله : "*إنّي أعلم ما لا تعلمون*" (البقرة، 2 : 29). الإنسان سِرُّ الله.

من هذه المُسلّمة يجب أن ينطلق كلّ تفكير في الإنسان وتفاعله مع الحقيقة. بدون الإنسان وتساؤلاته كَي يَعرف، ما كانت لتكون أيّ معرفة، ولا أيّ تساؤل حولها. الإنسان يريد أن يعلم، والله الّذي في المُستوى الأزلي علّمه "*الأسماء كلّها*" (البقرة، 2 : 31)، يحضّه على أن يعلم، وجعل من العلم طريق الإيمان الوحيد. لكنّه "*فوق كلّ ذي عِلم عليم*" (يوسف، 12 : 76)، والناس "*لا يحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء*" (البقرة، 2 : 255). الإنسان هكذا يستطيع أن يدخل في عِلم الله، بقدر يَقِلّ ويزيد، وهو في كلّ يوم يزيد. إلى مَتَى؟ الله أعلم ! في بحثه عن الحقيقة وطلبها، الإنسان كلّما ازداد عِلْما، قد يزهو بنفسه ويطغى. وقد يصل به الطغيان والزَهْوُ إلى حدّ الكُفر ونَفْي وجود "*الّذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، كلاّ إنّ الإنسان ليطغى*" (العلَق، 96 : 4 – 6). "*قُتِل الإنسان ! ما*

أكفَرَه؟" (عبس، 80 : 17). يجب ألاّ ينسى الإنسان، المسلم خاصّة، أبدا هذا عندما تعترضه قضيّة المعرفة والحقيقة.

قضيّة المعرفة والحقيقة

إنّ كلّ ما نعرفه، نعرفه عن طريق حواسّنا الخمسة. حواسّنا، كآلة مُسَجِّلة، بعلاّتها وقُدُراتها المحدودة، تُسجّل ما يبلغها، فتَصُبّه في الدماغ وتُرسل به إليه. والدماغ، بعلاّته وقُدُراته المحدودة أيضا، يُؤَوّله، وهكذا تحصُل المعرفة، أو ما نُسمّيه معرفة، معرفة بدورها مَعلولة ومَحدودة أيضا، ونعتقد أنّها الحقيقة. السؤال هو : هل هي معرفة صادقة حَقّا وحقيقة ثابتة؟ هل هي حَقّا عين الحقيقة في ذاتها؟ هل أجهزتنا الحِسِّيّة والدماغيّة قادرة على إدراك المعرفة وتَصوّرها كما هي حقّا ويقينا؟ هذا هو السؤال.

الفرق بيننا وبين أخينا الحيوان، في المرحلة التي بلغها في التطوّر، هي أنّه لا يشكّ. ولا يسأل السؤال الذي نسأله في المرحلة التي بلغناها في ساعتنا هذه من التطور. هو يشترك معنا في نفس الأجهزة. لكن باختلافات وقدرات مُتفاوتة، لاحظها أرسْطُ والجاحظ ومَن سبقنا عموما. والعلم الحديث خصوصا كشف عن جوانب منها بصورة تجريبيّة علميّة يقينيّة ودقيقة. بل حاول أن يستفيد منها، وحاول أن يُطوّر الحيوان الأكثر تطوّرا، بسُرعة تفوق السرعة الطبيعيّة. فعلّم الشمبَزي (chimpanzé) ما لم يعلم. لم يعلّمه، كما علّم الله آدم، "*الأسماء كلّها*." لكن نجح أن يعلّمه ما يقرب من 400 كلمة بشريّة. ثمّ نحن نَعلَم اليوم عِلم اليقين، أنّ الحيوان لا يرى العالم كما نراه. الكلب مثلا لا يُدرك ذاته. فإذا ما رأى نفسه في مِرْآت، حَسِبَ أنّه يرى كلبا آخر. بينما الشمبَزي (chimpanzé)، إذا ما قمنا بنفس التجربة، يُدرك ذاته.

الإنسان خُلِق من تُراب، ثمّ أصبح حيوانا، ومرّ بكلّ مراحل التطوّر التي مرّ بها الحيوان. لكنّه، على المَدَى الطويل، بلغ ما لم يبلغه الحيوان.

"*هل أتى على الإنسان حين من الدهر، لم يكن شيئا مذكورا. إنّا خلقنا الإنسان من نُطْفَة أمْشاج. نَبْتَليه : فجعلناه سميعا بصيرا. إنّا هديناه السبيل : إمّا شاكرا، وإمّا كفورا*" (الإنسان، 76 : 1- 3).

الله وضع الإنسان على *السبيل*. ونحن لا نعلم هل انتهى *السبيل*، أم هل ما زال التطور مُتواصلا؟ نحن نعرف اليوم أكثر بكثير مِمّا كان يعرفه أجدادنا، القريبين منّا، والبعيدين عنّا بُعدا سحيقا. نحن لا نرى اليوم الكون كما كان يراه بَطْليموس (Ptolémée).

فكيف سيراه خلفنا، ونحن ما زلنا في أوّل مشارف غزو الفضاء. هل انتهى التطوّر؟ العلماء اليوم في ذلك يختلفون. غير أنّ الله يقول لنا :

" نحن قدّرنا بينكم الموت. وما نحن بمسبوقين، على أن نبدّل أمثالكم، ونُنشِئَكم في ما لا تعلمون. ولقد علمتم النشأةَ الأولى، فلو لا تذكّرون ! (الواقعة، 56 : 60-62).

•

هل سيتمّ تبديل أمثالنا في الأرض، في سِلك التطوّر الذي سيتواصل؟ أم هل سيكون ذلك، بعد الموت، في الآخرة؟ الله أعلم.

إنّ قضيّة المعرفة والحقيقة لا تُطرح اليوم كما طرحها الغزالي، فحيّرته إلى حدّ انعقاد لسانه عن الكلام، ولم يخرج من أزمته الماورائيّة، كما رأينا، إلاّ بنور قذفه الله في قلبه. ولا تُطرح كما طرحها ديكارت (Descartes)، وهْيوم (Hume)، وكانْط (Kant). ثمّ من بعدهم هِيقل (Hegel)، وهوسِرل (Husserl)، وهايدِقر (Heidegger)، وغيرهم من المعاصرين. لكنّ، في اختلافات هؤلاء كلّهم، دليل على أنّ قضيّة المعرفة والحقيقة اليوم ما زالت قائمة مُعلّقة، وأنّ العقل الإنساني لا يستطيع اليوم، كما كان الأمر فيما سبق، أن يحلّ هذه القضيّة حلاّ حاسما يرفع الخلاف، ويرضي الناس كافّة وجميعا. هل سيبقى الأمر كذلك؟ هل سيبقى الإنسان محدود الحواسّ، ومحدود الجهاز العقلي الذي يُؤَوّل مُعْطَياتها الأوّليّة، بحيث تتعدّد التأويلات، وتتعدّد الحلول، وكلّ صاحب تأويل وحلّ يقول الحقّ معي وأنا أملك الحقيقة ؟ مَن يدري؟

كلّ ما نعلم هو أنّ قيمة معرفتنا في مُستوى الكُلّيّ والمُطلَق، إلى هذه الساعة ما زالت محدودة. حقّا ! نعلم اليوم ما لم يكن لِيحلم به مَن سبقنا، نعلم الكثير، وفي كلّ يوم نزداد علما. لكن هل سنبلغ يوما العِلم المُطلَق الذي لا يترك مجالا للشكّ والاختلاف فيما يخصّ الحقيقة؟. هذا غيب. لكنّنا نقول ما قال الله لرسوله أن يقول، نقول : "*ربّي زدني علما*" (طه، 20 : 114). غير أنّنا مهما زادنا الله علما، نعلم أنّ الإنسان لن يبلغ أبدا عِلمَ الله : "*ولا يحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء*" (البقرة، 2 : 255). نحن لا نعلم إلاّ عِلما محدودا بقدر ما شاء الله.

والمستقبل طويل أمامنا، والاكتشافات تتواتر بنسق أسرع فأسرع. فهل سيُرفَع الخلاف يوما مهما كان الأمر في شأن المعرفة والحقيقة، وهل سَيَحُلّ مكانه الإجماع حولها؟ مَن يستطيع الجواب؟ هل الإنسان، في مجرى التطوّر وغزو المعرفة، سيبلغ يوما طورا من السُمُوَي الجسدي والارتقاء الفكري المعرفي، يجعله يتجاوز محدوديّاته بالقدر

الذي يصل به إلى الإجماع حول ما يُدْرك من الحقّ والحقيقة، مهما كان هذا القدر قِلّة أو كَثْرة؟ رأينا أنّ الله، في سورة فصّلت يعده بذلك. اليوم، مهما بلغنا من العلم في هذه الساعة، تبقى معرفتنا محدودة. وإلى الآن لا ندري حتّى مَتَى تبقى قضيّة المعرفة والحقيقة قائمة، والمواقف منها متباينة.

السفسطة (sophisme)

تقول لا وجود للحقيقة.

•

السفسطة واقعيّة. لا تهتمّ بالحقّ في ذاته (En soi)، وإنّما تهتمّ به لِالذات (Pour soi). الحقّ نِسْبيّ ومتغيّر بتغيّر مهارة المُرافع من أجله. هي مُرافعة الذئب ضدّ الخروف، والسياسة اليوم ميدانها المفضّل[2]. في نظر السفسطائي القضيّة إنما هي قضيّة بلاغة وفصاحة وحِذق فنّ المنطق ومهارة في البيان والإقناع وقلب الحقائق. هذا حقّ، وعكسه حقّة، فلا حقّ.

نشأت السفسطة كفلسفة لها أنصارها وخصومها في اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد. وكان ألمع أنصارها زينون الأليانذي (Zénon d'Elée) الّذي اشتهر بإقامة الدليل، المنطقي ظاهرا، على استحالة الحركة. فالأرنب مثلا، مهما كانت سُرعتها، يستحيل أن تلحق أبدا السُلحُفات، والسهم يطير في الهواء، ويبقى ساكنا. وكان من أشهر خصومها : أرسْط، وسقراط، وإفلاطون. وفي النهاية تمّ تفنيدها، وفضح مُغالطتها، وقبرها، كفلسفة، في خبر كان، وانتهى أمرها. ولقد دخلت في الحضارة الإسلاميّة، ولم يَبْقَ منها سوى فعل "سَفْسَطَ" ومعناه لا يحتاج إلى شرح وتفسير.

كانت السفسطة تُدرّس في اليونان في فنّ البلاغة والمرافعة والمنطق. إذ الرجل البليغ الفصيح، والخطيب المِصقع، والمُرافع الماهر، يستطيع إقامة الدليل على الشيء وضدّه. المحامي البارع مثلا هو الّذي يستطيع أن يثبت أنّ الحقّ مع حريفه، أكان على حقّ أم لا. وإذا ما انقلب الوضع، ورافع مع خصمه، يستطيع أيضا أن يثبت أنّ الحقّ معه. لا حقّ في ذاته. الحقّ هو ما يقيم عليه الدليل المرافع من أجله، سواء أكان حقّا أم لا. هذه هي فلسفة السفسطة. وهي كثيرا ما تعتمد القياس الفاسد، من نوع : كلّ شيء نادر نفيس. حِمار في بيت فخم أنيق نادر. الحمار نفيس. هذا هو التدليل السفسطئي : قولة حقّ يُراد بها باطل. السفسطة مُغالطة اندثرت. غير أنّ بقيّة المواقف المتباينة مازالت قائمة على أشُدّها.

---

2 Nous renvoyons à notre ouvrage, *A Benoît XVI*, Tunis, 2011, chap. *Le cynisme*.

النسبويّة (le relativisme)

تقول : الحقيقة موجودة، لكن لا أحد يملكها.

وهذه القولة تتجاوز السفطة بأنّها تَصُدّ عن سبيل الله، وتلك غايتها. ذلك لأنّ المعرفة نسبة، بين ذات عارفة، وموضوع محلّ معرفة. ينجرّ عن ذلك أنّ كلّ ما يُقدّم لنا بأنّه الحقيقة ذاتها، ليس بالحقيقة ذاتها، إنّما هي علاقة نسبويّة بين ذات عارفة، وموضوع محلّ معرفة. لا أحد يملك الحقيقة، وإن كانت الحقيقة ذاتها موجودة. وإنّما يملك علاقة نسبويّة ذاتائيّة (subjective)، يدّعي أنّها الحقيقة. لكن لا أحد يملكها. وهكذا تضيع الحقيقة في ذاتها. فلا نملك سوى حقائق نسبيّة متعادلة، لا تفوق منها حقيقة على أخرى.

وإذا ما كان ذلك كذلك – وهذا بيت القصيد -- فلا فرق بين النُفاتيّة (athéisme) والإيمانيّة، وبين الإسلام، والمسيحيّة أوالبوذيّة، وهَلُمَّ جَرّا. كلّ هذه العقائد وغيرها، لا حقيقة لها، إنّما هي كلّها حقائق نسبويّة ذاتائيّة وهميّة، يدّعي مَن يقول بها أنّها الحقيقة، حسب اقتناعه الذاتائيّاتي. وفي النهاية تصبح كلّ الاعتقادات والأديان أوهاما، وكلّ فرد، إذا ما شاء، يختار لنفسه ما يشاء من العقائد والأديان، يختار ما يُوافق شهوته وهواه، في ظرف ما وزمان ما. وقد يتغيّر رأيه بتغيّر موضة وقته. فتدخل المرأة مثلا مغازة الحقائق، وتختار حقيقة، دينيّة أو نفاتيّة، لأنّ كلّ الأديان والاعتقادات متساويّة، كما تختار بُدْلة أو حِذاء. النسبويّة هوائيّة، والله يقول :

"*أرأيت مَن اتّخذ إلهه هواه ! أفأنت تكون عليه وكيلا؟*" (الفرقان، 25 : 43). كلا ! "*لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أخرى.*"

العجيب هو أنّني سمعت مَن يحتجّ للنسبويّة بالقرآن. آخذ مثلَ طالبة عهدتها مسلمة، وفي الأثناء خالطت أوساط " *المرتدّين الأحرار*"، و" *الأحرار المفكّرين*" بتونس. هذه الطالبة تمثّل شريحة عريضة من شرائح المجتمع المثقّف ثقافة عالية جامعيّة، وهذا هو المهمّ. في مَجْرَى الحديث، وفي لهجة الاستنكار الشّديد، قاطعتني بحِدّة يوما قائلة : لا أحد يملك الحقيقة ! قلت لها : عهدتُك مسلمة. فقالت لي : القرآن يقول ذلك، وذكرت قوله تعالى : "*لكم دينكم، ولي دين*" (الكافرون، 109 : 6).

سورة الكافرون تحمل رقم 18 في ترتيب النزول، وهي من أوائل السوَر التي نزلت بمكّة، والخطاب فيها موجّه إلى وَثَني قريش. أعجب كيف يتبادر إلى ذهن أيّ ذي عقل، ولو كان غير مُسلم وأبسط الناس عقلا، أنّ الله الذي يتوعّد الكافرين بأشدّ العذاب في الآخرة، والخطاب موجّه إليهم من أولّ عبارة في السورة المذكورة، والتوعّد يتجدّد بقوّة في كامل القرآن، في سورة الأعراف مثلا، التي تحمل رقم 39 في ترتيب النزول، ونزلت إذن بعد سورة الكافرون بقليل، كيف الله الذي هو كما وصفنا، يقول لرسوله، الذي أرسله بالهدى *"وبدين الحقّ ليظهره على الدين كلّه ولو كَره المشركون"* (التوبة، 9 : 33 ؛ الزُمَر، 39 : 2 ؛ الفتح، 48 : 28 ؛ الصفّ، 61 : 9)، كيف يقول له أنّه " لاأحد يملك الحقيقة؟" وأن يقول له إنّ الأديان كلّها متساوية؟ حتّى أوْضَحَها سخافة !؟ وأنّ الكافرين لهم دينهم، وأنّه له دينه، على السواء بينه وبينهم. فلِمَ إذن أرسله الله " *بدين الحقّ ليظهره على الدين كلّه ولو كَره المشركون !*" (التوبة، 9 : 33). ولِمَ أنزل " *الكتاب بالحقّ؟*" (الزمر، 39 : 2) ولِمَ الإسْلام هو " *دين الحقّ؟*" (الفتح، 48: 28 ؛ الصف، 61 : 9). فهذا خُلفٌ، كما يقول الكِنْدي، أي تناقض في لغتنا اليوم. ذكرت القصّة ليدرك القاريء إلى أيّ حدّ ينطلي التدليس والتلبيس حتّى على أعلى الناس ثقافة.

الحقيقة هيّ أنّ المقولة "لا أحد يملك الحقيقة" مُصادَرَة (postulat) باطلة بلا دليل مَنْطِقيّ.

هذه قولة يموّه بها على العُقّل، يموّه بها عليهم خاصّة مَن تَسَمّوا بالأحرار المُفكّرين (les libres penseurs) بتونس، محتكرين الحريّة لأنفسهم دون غيرهم، ويجاهدون ليُحرّروا مَن لمّا يتحرّروا من الإسلام، جهاد الاستماتة بسلاح كلّ باطل. وهي قولة ليست في حاجة إلى حِجاج يقيم عليها الدليل أنّها باطلة، لأنّها باطلة في ذاتها لا تثبت أمام المنطق. وبطبعه، كما يقول الله، " *الباطل كان زهوقا*" (الإسراء، 17 : 81). هذه القولة باطلة من أصلها لأنّها متناقضة في صُلبها. قائل "لا أحد يملك الحقيقة"، هو بين حالتين : إمّا وإمّا، ولا يستطيع أن ينفلت من الجواب. إمّا أنّه لا يقول حقّا، وإمّا أنّه يقول حقّا.

الحالة الأولى : لا يقول حقا. وحيث أنّه لا يقول حقا، فهوكاذب، وهذا يستوجب حتما وضرورة أنّ هناك مَن يملك الحقيقة.

الحالة الثانيّة : يقول حقّا، فإذن هناك مَن يملك الحقيقة، وهو القائل.

في كلتا الحالتين هناك مَن يملك الحقيقة. والقولة تقول "لا أحد يملك الحقيقة." فهي إذن قولة تناقضية باطلة ، تقول الشيء وضدّه، يُقصد منها التمويه والمُغالطة.

ثمّ نضيف : لو سلّمنا بالمستحيل، أنّه لا وجود لِمَن "يملك الحقيقة"، ذلك يستلزم وجوبا أنّه لا وجود للحقيقة ذاتها، لانعدام من يملكها، فنقع في اِنْعِدام لانْعِدام : فكيف نعرف وجودها، ولا وجود لمَن يعرفها، وإذا ما كان يعرفها، فهوإذن يملكها؟

الحقيقة موجودة وجوبا، لأن الكائن الأوّل بلا بداية ولا نهاية موجود وجوبا، وكلاهما متلازمان : الحقيقة هي الكائن الأول. بهذا المفهوم، حقّا لا أحد يملك الحقيقة، لأنّه لا أحد يملك الكائن الأوّل في ذاته، وهو يملك كلّ كائن في ذاته : "*لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار*" (الأنعام، 6 : 103). نحن لا نملك الحقيقة في ذاتها إذا ما عنينا بذلك الكائن الأوّل الذي "*لا تدركه الأبصار*" في ذاته، لكنّنا نملك الحقيقة كما أبلغها الكائن الأوّل للناس كافّة وجميعا في كلامه. وفي وسع كلّ إنسان أن يملك الحقيقة. يكفيه أن يفتح كتاب الله، وأن يقرأه بتدبّر، كما أمر الله. ولا حجّة لِمَن ضلّ عنها، واتّخذ هواه حقيقة، فَتَعدّدت الحقائق النسبيّة بتعدّد أصحاب الأهواء – وما أكثرهم ! ـ وحقّا، لا أحد منهم "يملك الحقيقة"، فهم عنها في ضلال مبين.

والحقيقة هي أنّ النسبويّة سُفْسُطة جديدة، عوّضت السُفسطة اليونانيّة القديمة التي اندثرت لسُفورها، ففضح أمرها الفلاسفة وذكّرنا أهمّهم. بينما النسبويّة سُفْسُطة مقنّعة. ولهذا عمّت وانتشرت. القولة "لا أحد يملك الحـقـيقة"، في ظـاهرها

مُفحمة مبكمة مبكتة، بحيث تنطلي على غير المنتبه لبطلانها منطقيّا وعقلانيّا. فإذا ما ألقيت في وجهه، سكت وارتبك وصدّق، كي لا يُقال إنّه مُتخلّف غبيّ، لا يصدّق بالبديهيّات.

خُلاصة القول هيّ أنّ الحقيقة موجودة لا مِراء فيها، وهذا ما تُقِرّه النسبويّة ذاتها، خلافا للسُفسطة. ووجودها يستلزم وجوبا وجود مَن يملكها ويشهد عليها. السؤال الحقيقي إذن هو : مَن يملك الحقيقة؟

الأجوبة حتما تختلف، والاختلاف مقصود، "*ولَيُبَيّنَنّ لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون. ولو شاء الله لجعلكم أمّة واحدة. ولكن يُضِلّ مَن يشاء، ويهدي مَن يشاء. ولَتُسْألنّ عمّا كنتم تعملون*" (النحل، 16 : 92 -93). لو شاء الله لجعلنا أمّة واحدة كأمّة النحل بلا حريّة. لكنّه شاء لنا الاختلاف والحرّية، ولا حريّة بلا اختلاف. سنستعرض إذن أهمّ الأجوبة المختلفة. والاختيار بينها حرّ. وبكلّ حريّة سنعرض طبعا اختيارنا. والاختلاف مقصود، وبدونه لما كان التنوّع، وهو سِرٌّ الله.

الألاأدريانيّة (agnosticisme)

تقول : الحقيقة موجودة لكن لا أدري أين هيّ.

الألاأدريانيّة، كموقف فكريّ واع عن عِلم ودَرْس وبَحْث واختيار، حديثة النشأة. فهي ليست لا شكوكيّة ولا نسبويّة، وإنمّا توقف بين النفاتيّة والإيمانيّة لِانْعِدام المرجّح بينهما. الألاأدريانيّة توقفية في مُنعرج السُبل عندما ينفصل المَرء عن دين بيئَته التقليدي لأسباب ضميريّة، قد تصل أحيانا إلى الأزمة، و في طلبه للحقيقة يبلغ نقطة الابَتّيَّة (indécidabilité) القودليّة، لِتعادل الأدلّة عنده، فيستحيل الجزم بهذا أو بذاك، ويتعيّن عدم البتّ.

نعلم بدقة، وقلّما يقع ذلك، أنّ كلمة (agnosticisme) نشأت في أنجلترا سنة 1869، أنشأها عالم حيواناتي، تومس هيوكسلي (Thomas Huxley)، الّذي كان متحمّسا شديد التحمّس إلى نظريّة داروين، الّتي، وإن كانت أميل إلى النُفاتيّة، يمكن أيضا أن تتأقلم مع الإيمانيّة. فاختار تومس هيوكسلي الألاأدريأنيّة وأنشأ لها اسما، وهكذا أصبحت فلسفة محترمة، يخرج بها المُتَحرّج من الأديان من لا ونعم. اليوم، حَسَبَ إحصاء أنْجز سنة 2010، يبلغ عدد الألاأدريانيّين في العَالم 639 مليون نَسَمَة[3]. وحسب إحصاء أنْجز سنة 2006 بفرنسا، تبلغ نسبتهم في هذا البلد 32 % ، يتعادلون في ذلك مع النفاتيّين. ومن أشهر الألاأدريانيّين في مستوى عالمي، داروين (Darwin) وآينِشْطاين (Einstein).

والألاأدريانيّة، إذا ما دامت واتّصلت، يعسر أن لا تصبح في النهاية نوعا مريحا من الألااكتِراثيّة. "*يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة غافلون. أولم يتفكّروا في أنفسهم؟ ما خلق الله السماوات والأرض، وما بينهما، إلا بالحقّ وأجل مُسَمّى. وإنّ كثيرا من الناس بِلِقاء ربّهم لكافرون*" (الروم، 30 : 7 -8). هذه هيّ حقيقة الألاأدرياني على مدى الحياة.

---

[3] D'après *Atlas of Global Christianity* , réalisé par Todd M. Johnson , et Kenneth R. Ross , Université d'Edimbourg.

النفاتيّة (athéisme)

تقول : الحقيقة موجودة، وهي المادّة العمياء.

بدون خالق ولا غاية، في تفعلها مع الصدفة. فإن كان الألاأدرياني يقول : لا أدري. فإنّ النفاتي يقول : أنا أدري، أدري دراية العِلم الثابت أنّه لا وجود لِما يُسَمَّى إله. لم يخلِق ما يُسَمَّى إله شيئا، لا السماوات ولا الأرض ولا ما بينهما ولا الإنسان. إنّما الإنسان هو الّذي خلق الإله من أوهامه، ومن خوفه من فواجع الطبيعة، من رعدها وبرقها وزلازلها ومختلف كوارثها. خلق إلها صوّره على صُوَر مختلفة كلّها مرعبة، من مَدَرٍ أو خَشَبٍ أو طين، وعملا بقاعدة "أعْطِ تُعْطَ"، وعلى قدر ما تُعْطِي تُعطَى، اخترع أنواعا من الطقوس يتقرّب بها إليه ليحميه من وَيْلات الطبيعة، ومنها طقوس قاسيّة إلى حدّ التقرّب من الإله بالقرابين البشريّة، وبأعزها، بأعزّ الأبناء مثلا.

هذا الإنسان الّذي خلق، من أوهامه وخوفه، إلاها وهميّا عبده، خرج هو نفسه من مادّة جامدة عمياء، بصُدْفة أعمى من المادّة العمياء، تخبط خَبْط العَشْواء في ليلة دهماء، عن طريق النشوء والارتقاء والتطوّر الأعمى، خرج هكذا، من العماء المُطلق المحيط بكلّ الأشياء - عجبا! - ذكِيّا بصيرا بكلّ الأشياء، وخَلَق لنفسه إلاها مزعجا أعمى. في النفاتيّة كلّ شيء عماء جاء من العمى ! فكيف لا تكون هيّ ذاتها أكبر العمى، الّذي عنه صدر كلّ عمى؟

قلنا إنّ دينَنا الحريّة. لنا ولهم طبعا. فهذا ما نراه فيهم : هم قوم لا يُبْصرون، لأنهم شاؤوا لأنفسهم العمى، بكلّ حُريّة وغباوة وعماء. ذلك لأنّ الله جعل الإنسان "*سميعا بصيرا*"، ثمّ هداه "*السبيل : إمّا شاكرا، وإمّا كفورا*" (الإنسان، 76 : 2 -3). وذلك بكلّ حريّة، إذّ الله يأمر رسوله بأن يقول : "*قد جاءكم بصائر من ربّكم، فمَن أبصر فلنَفْسِه، ومَن عمِيَ فعليها، وما أنَا عليكم بحفيظ*" (الأنعام، 6 : 104). والله ينبّه أنّه "*لا تعمى الأبصار، لكن تعمى القلوب التي في الصدور*" (الحجّ، 22 : 46).

فَلِمَ "*تعمى القلوب*؟" إنّ الله "*علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم*" (العلق، 96 : 4-5). غير أنّ الإنسان قد يكون شاكرا، فيهتدي ويهدي بالقلم الّذي به تتراكم وتنموا المعرفة بلا انقطاع. وقد يكون كفورا، فيطغى "*أن رآه استغنى*" (العلق، 96 : 7)، فيَعْمَى، ويُعْمِي

بالقلم، وهذا ما وقع فيه النفاتي عموما. رزقنا الله الذي "*يرى*"، حسن الرؤية، وهدانا وهدى بنا، وعافانا من عمى النفاتي الذي يعلّم ويَبُثّ العمى، وقد يكون من أعلم العلماء.

ومنهم في عِصرنا سارتر (Sartre, 1905-1980). سارتر هيمن على عصره. مُتأثرا بالفيلسوف النازي الألماني هايدقار (Heidegger). لقد قدّم أطروحة بعنوان *الكائن والعدم* (*L'Etre et le Néant* ,1943) أصبحت إنجال النفاتيّين، وأشفعها بمؤلّفات أخرى عديدة فلسفيّة وأدبيّة تنبع من نفس معين القول بالماديّة. فهو فيلسوف وجوديّ (existentialiste) شغله الشاغل علاقة الإنسان بالحريّة. فهو يرى أنّ الإنسان نشأ صُدْفة من المادّة : لأنّه لا وجود لعدم سبق المادّة، إذ العدم لا يلد ولا يخرج منه شيء. وكذلك لا وجود لكائن أوّل بصير مدبّر، خلق المادّة والكون والإنسان بحكمة ولِغاية، إذ لا حاجة إليه ولا دليل يدلّ عليه. هذا الإنسان الذي هكذا نشأ، وجد نفسه مُضيّعا، وموكولا لنفسه. وهكذا فهو مَحكوم عليه حتما بالحريّة، مَقضيّ عليه بها، لا مهرب له منها. فهو مَقضي عليه بحريّة لا يدري ما يصنع بها. وهكذا هذا الإنسان المُضيّع في عالم نشأ فيه بمجرّد الصدفة، صنع لنفسه الالتزام بغاية، لِيُعطي لوجوده اتّجاها ومَعْنَى وغاية. لقد كان سارتر من مؤسّسي فلسفة الالتزام (l'engagement) الّتي لعبت دورا كبيرا في أواسط القرن الماضي، خاصّة في الميدان السياسي، وتبنّتها على الخصوص الشيوعية، وقاومتها اللّيبرالية (le libéralisme). فانضمّ سارتر إلى الشيوعيّة النفاتيّة بطبعها، ثمّ غادرها لتناقضها مع الحريّة، وعبّر عن ذلك في مسرحيته الرائعة "*الأيدي القذرة*."

وفي نفس العصر جاء (Jacques Monod 1910 -1976)، العالم الإحيائي، جائزة نوبلْ 1970، وكان قد رفضها سارتر سنة 1964، بتفسير للنّفاتية يعتبره علميّا بأدلّة قطعيّة لا تُردّ. الإنسان، في تفسيره المدعوّ بالعلمي، والمنفرد به دون غيره من علماء العلوم الدقيقة، يكون قد نشأ صُدْفة، بتفاعل *الصدفة والاضطرار* (*Le Hasard et la Nécessité*)، من مادّة عمياء لا غاية لها ولا تدري ما تفعل. وذلك لأنّ الإنسان، في مجرى النشوء والارتقاء والتطوّر، نشأ، ككلّ شيء حَيّ، خليّة بسيطة. ثمّ، طبق قانون التعقّد (complexité) المستمر نحو الأكثر فالأكثر تعقدا، انتهى إلى شكل الإنسان. ونحن، بعد قراءتنا لكتابه، نبقى كغيرنا مِمّن قرؤوه من غير النفاتيّين مُسبّقا، على حالنا، لا ندري كيف ينشأ الذكاء من العماء، ما لم يكن المرء، مهما كان عِلمه، نفاتيا أعمى مسبّقا؟

سارتر وجاك مونو، وأضرابهما، علماء كبار أجلاء. وهم إذ يقولون ما يعتقدون بصدق وحماس، يتنزّهون عن البذاءة والكذب والشتم. ونحن، على خلافنا معهم الكلّي الذي لم نخفه، لا نحترمهم فقط، بل نجلّهم بصدق، لما قدّموه للفكر الإنساني، الّذي لا يتقدّم إلاّ بالخلاف والسجال – وقد ساجلناهم بشدّة -- من خدمات جليلة لا بدّ منها ولا مهرب، ليكون الفكر مستنيرا ومطّلعا على الأطروحة وضدّها. وبذلك يصبح الاعتقاد يقينا شخصيّا فرديّا،

لا مجرّد تَكَيُّف بالعائلة والبيئة، وتقليدا لـ"*سنّة الأوّلين*" (الحِجر، 15 : 13)، ويقول الله إنّها قد "*خَلَتْ*"، وانتهى أمرها بنزول القرآن الّذي فتح عصر الحداثة والعقل. فالله يدعو بإلحاح في القرآن الحكيم إلى الحكمة والتفكير والتدبّر والعقلانيّة، وفي كلّ شيء تحكيم العقل، الّذي يأتي ذكره في القرآن في ما لا يقلّ عن 40 آية.

النفاتيّة الانسلاخسلاميّة

تقول : نرفض القرآن لأنّه كلّه سخافات وأباطيل.

لنا حصّتنا من النُفاتيّين المنسلخين عن الإسلام، بدون إحصاء لثقلهم في المجتمع لأسباب لا تخفى عن الجميع نأسف لها. الانسلاخسلاميّة تقول : القرآن افتراء، والبعض يضيف كلّه قبائح (conneries)، ومؤلّفه محمّد مع عصابته، والبعض يضيف أنّه أكبر الفاسقين. ولا يضيرنا ما يرى فينا النفاتيّ، وما ينسبه إلينا من الغباوة، مُحتكرا لنفسه الذكاء والتفكير الحرّ، الّذي إليه يدعو، في فايسبوك (face book) وغيره. لا يضيرنا المتلقبون "بالمُرتّد الحرّ"، و"بالأحرار المفكّرين"، وغيرهم من الأحرار حريّة الشتم، إذ لا نجد عندهم غير ذلك بصور شتّى. لا يضيرنا كيف كَذِبا يشوّهون كتاب الله ويُزوّرونه ويستهزؤون به بأرذل الأقوال، والرذيلة لا تنبع إلاّ من منبعها. هم أحرار في الرذيلة، وديننا الحريّة، وبذلك أوصانا الله : "*فَمَن شاء فاليؤمن، ومَن شاء فاليكفُر*" (الكهف، 18 : 29).

لهم الحقّ في أن يكفروا، ونحن دافعنا عن حقّهم هذا، وسنادفع عنهم باستمرار، عملا بقول الله. ونفوّض أمرهم إلى الله في الآخرة، الّذي ينفون في الدنيا وجوده، ويسخرون منه، ومن عباده المؤمنين، "*والله بصير بما يعملون*" (البقرة، 2 : 96) ؛ و"*الله يستهزئ بهم ويمدّهم في طغيانهم يعمهون*" (البقرة، 2 : 15)، لأنّهم اختاروا بكلّ حريّة العمى عن البصر. ولقد أعرضنا عنهم، وسنواصل دفاعنا عن حريّتهم. وما كنّا لنعرض إليهم في هذه التذكرة، لولا الحاجة لوقاية المسلم العادي -- الّذي قد يغترّ بكذبهم – من تدليسهم وتلبيسهم الحقّ بالباطل.

<u>لكلّ مَقام مَقال</u> : لغة الانسلاخسلاميّين على اختلاف أطيافهم كلّها قذف وشتم. والجاحظ، معلّم *البيان والتبيّين*، يقول لكلّ مقام مقال. فلا بدّ إذن من مخاطبة القوم بما يفقهون. وشاعرنا زُهير بن أبي سلمى، الجاهلي زمنا لا جهلا، يقول لنا بحكمته الخالدة :

*ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه * يهدّم، ومَن لا يظلم الناس يظلم*

وهو لا يريد، بـ" *مَن لايظلم الناس*"، الظلمَ. إنّما يريد الردع عن الظلم بأنجع الوسائل. وهذا ما سنفعل، كي لا يُعتبر طويل سكوتنا ضعفا وفقدان الحجّة والبيان. ونكتفي بثلاثة أمثلة.

مثل
يوسف الملقّب نفسه بالمرتدّ الحرّ

ننقل عنه من فايس بوك نبذة واحدة، فيها كفاية لبيان بذاءة لسانه وعميق جهله، مُعرضين عن صوره الهزليّة البشعة التي تصل إلى حدّ القذارة الجنسيّة. وذلك لأنّه، من حيث أنّه اختار أن يكون أعمى، يقول بالمادّة العمياء، فهو أعمى كما اختار أن يكون، ولا "*يعلم بأن الله يَرَى*" (العلق، 96 : 14). وما كنّا لنعتنيَ به، لأنّه ليس من الذين يُعتَنى بهم، لولا أنّه يُزيّف ويكذب بوقاحة، ليُعْمِيَ الذين ينخدعون لأضاليله، ومنهم المسلم، الّذي نكتب إليه هذه التذكرة دون غيره. ننقل عنه ما يلي (فايس بوك، فيفري، 28، 2013) :

" *المُثقف الفارغ : هو الذي يقرأ في شتّى العلوم ... وفي أطراف المكتبة مُصحف لم يمسّه أبدا ! هذه واحدة من آخر إبداعات المسلمين التي لا يمكن لعاقل أن يقرأها من دون أن يشعر بالكمّ الهائل من الاستفزاز والوقاحة التي تحملها... مُثقف فارغ لأنّه لا يقرأ كتابا تختلف الطوائف في تفسيره، ويعُجُّ بأخطاء علميّة، ومَليئ بالآيات التي تتحدّث عن نِكاح محمّد وأصحابه، وشتم أعمامه، ووُعود الدعارة مع الكواعب الأتراب، والكسل على الأرائك في الجنّة الخرافيّة، وأساطير كائنات وهميّة : جِنّ وشياطين يَتِمُّ صيدها بالنجوم.* "

نقول للمسلم، هذا شتم بذيئ سافر، لا حاجة لبيانه، وكلّ إناء بما فيه يرشح. نترك الإناء لصاحبه، ونصبُّه على رأسه الأعمى، المحموم بالحقد على دين آبائه وأجداده، الذين أنشئوه رغم أنفه في هذا الدين الّذي أصبح يخجل منه، ومنه تَحَرَّرَ، مع إضمار الحِقد الدفين في أعماق طيّات وَعْيه والاوعيه على أبويه ودينهم. الجواب على هذه الأكاذيب والقذرات يستوجب الصفحات الطويلة، وليس هذا مقامها. ونحيل المسلم الّذي تؤلمه هذه الأكاذيب على مؤلّفاتنا العديدة الّتي بلغت الآن 26 كتابا وعلى مئات مقالاتنا. وإذا ما هو أبى أن يجد شيئا من وقته ولو قليلا ليقرأ، فإنّنا لا نستطيع له شيئا، وفي ما يلي في هذه التذكرة نوفّرله أقلّ الزاد لتحصينه، وهذا كلّ ما في وسعنا. ونحن لا نستطيع أن نثقّفه بدينه ما لم يبذل الجهد، ولو أقلّه، ليثقّف نفسه بدينه.

أمّا ثقافة يوسف، المرتدّ القذر، الّذي نقلنا عنه عَيْنة من أكاذيبه وقذراته، ولا نستطيع الاّ نجيبه إلاّ في اللّغة الوحيدة الّتي يفهمها هو وأمثاله، فهي لا تزيد عمّا يغترفه، من مجلّة شارلي- هيبدو (Charlie Hebdo) وما هو من قبيلها، من قذرات شتّى وكريكاتورات بذيئة يشوّه بها الإسلام، قد سبقه بها إليه كلّ الّذين جعلوا منه محور الشرّ بإجماع الغرب، وكلّ زعانيف المرتدين من أمثاله وأنصاره. وحيث أنّ هؤلاء الزعانيف المرتدّين المثقفين ثقافة شارلي – هيبدو اختاروا القذرات، فنحن نتركها إليهم بِكَرَم وسخاء ولا نحسدهم عليها، ونتمنّى لهم أن ينغمسوا في نتونتها حتّى إلى العنكوش وأكثر!

وطَمْئِن المسلم الّذي تحيّره أكاذيب وشتائم يوسف القذر. فهو ليس من العلماء، وحيث هو كذلك فلا يُصدّق ولا يُكترث بما يقول. لا نعرف له ولو كتابا واحدا نَقرأه ويُحال عليه. فهو ليس بمثقّف فارغ. بل هو الفراغ الثقافي. إنّما هو نَكِرَة، لا يعرف إلاّ المنكَر والشتم بلا عِلم ولا برهان. نقول بلا عِلم وبرهان، لأنّنا لا نجد فيما يكتب حجّة على ما يكتب.

في عُجالة نقول للمسلم : الاختلاف في تفسير القرآن أمر طبيعي ودليل على يقضة الفكر وحريّة التدبّر؛ لا حديث في القرآن عن نكاح أصحاب محمّد، عليه أفضل صلاة وتسليم! يوسف يكذب بسفالة ؛ لا خطأ علميّا في القرآن، بل إعجاز علميّ أبهر كبار العلماء الّذين لا يصل يوسف القذر إلى كعبهم، ونحيل على قليل المراجع من كُثر[4] ؛ محمّد لم يشتم أعمامه، ومنهم مَن تآمر على قتله، بل عامل بِحِلم عمّه العبّاس حين وقع في الأسر في وقعة بدر.

الكائنات الوهميّة؟ القرآن لم يخترع " *الأساطير والكائنات الوهميّة من جِنّ وشياطين يَتِمّ صيدها بالنجوم.*" لقد كانت موجودة مُنذ آلاف السنين، وكانت مواكبة للفكر السحري (la pensée magique) الّذي لم ينقرض بعد. اسْأل الرئيس جاك شيراك، الّذي استشار منجّما من بلاد الجريد ببلادنا – وفي ذلك فخر كبير لبلادك !- فأتاه بالخبر الصحيح الّذي أثلج صدره لاسيّما وقد تحقق. ولا شكّ أنّ هذا المنجّم، أو الكاهن على غرار مَن طاردهم محمّد في عصره، كان له جِنِيّ يسترق له السمع، ولسعادة جاك شيراك - الّذي صدّق الخبر - ! لم "*يتمّ صيده بالنجوم.*"

واسْأل مُنَزّلي الأرواح (les spiritistes) في كامل العالَم، حتّى في البيت الأبيض. وارجع إلى يسوع ابن الإله، ولا شكّ أنّك لست أقلّ إعجابا به من زميلاتك في القذرات، الّتي سيأتي ذكرها بما تستحقّ، وخُذ الخبر اليقين. ابن الإله – وياليتك انقلبت إلى الإيمان به !- كان بلا منازع أكبر المُعَـوِّذين (exorciseur) من الجنّ، ومنهم الشياطين.

[4] Nous renvoyons entre autre à : Maurice Bucaille, *La Bible, le Coran et la Science* (trad. en arabe), et notre ouvrage en collaboration avec lui : *Réflexions sur le Coran.*

ولقد كانت له معهم أقاصيص غريبة، عديدة وعجيبة، يطردهم تارة فرادى وتارة جماعات. وتبلغ هذه الأقاصيص عند المسيحيّين حدّا من الصحة واليقين يجعلها تصبح أسّا أساسيا في عقيدتهم. ولقد فوّض يسوع، قدرته على التعويذ من الشياطين وطردهم من الأجساد التي يتلبّسون بها، إلى الرهبان من بعده. فإلى هذه الساعة لا تخلو أيّ خَوْرانِيّة (paroisse) من راهب مُعَوِّذ. ونحن ننقل لمزيد التوضيح قصّة من هذه الأقاصيص :

" *ثمّ وصل يسوع إلى الضفّة المقابلة من البحيرة. وحالما نزل من القارب، لاقاه من بين القبور إنسان يسكنه روح نجس. كان يُقيم في القبور. ولم يكن أحد يَقدِر أن يُقيّده حتّى بالسلاسل. فإنّه كثيرا ما رُبِط بالقيود والسلاسل. فكان يقطع ويحطّم القيود. ولم يقدر أحد أن يُخضِعه. وكان في القبور وفي الجبال دائما، ليلا ونهارا، يصيح ويُجرّح جسمه بالحجارة. ولكنّه لمّا رأى يسوع من بعيد، ركض وسجد له، وصرخ بأعلى صوته : ما شأنك بي يا يسوع ابن الله العليّ؟ استحلفك بالله ألاّ تعذّبني ! فإنّ يسوع كان قد قال له: أيّها الروح النجِس، اخْرُج من الإنسان ! وسأله يسوع : ما اسمك؟ فأجاب: اسمي لجِنون، لأنّنا جيش كبير ! وتوسّل إليه بإلحاح ألاّ يَطْرُدَ الأرواح النجسة إلى خارج تلك المَنْطِقَة. وكان هناك قطيع كبير من الخنازير يرعى عند الجبل. فتوسّلت الأرواح النجسة إلى يسوع قائلة : أرْسِلنا إلى الخنازير لِنَدْخُل فيها. فأذِن لها بذلك. فخرجت الأرواح النجسة ودخلت في الخنازير. فاندفع قطيع الخنازير من على حافة الجبل إلى البحيرة، فغرق فيها، وكان عدده نحو ألفين.*" (انجيل مرقس، 5 : 1 – 14 ؛ انظر أيضا متّى، 8 : 28 – 34 ولوقا 8 : 26 – 39).

لا نستطيع هنا تفنيد كلّ مزاعم المرتدّ الحرّ ومَن لفّ لفّه من الأحرار المفكّرين لضيق المقام. ونأسف مرّة أخرى لِلجوئنا في مخاطبتهم إلى لغتهم، لأنّهم لا يفقهون غيرها ولا تَردَعهم. لقد تغذّوا بالقدُرات التي وفّرها لهم توفيرا مَن تتلمذوا عنهم من أساتذة الاستشراق المسيحي، فأخذوا يلفضونها من كلّ ثُقبهم أكداسا مُكدّسة، ويلوكونها هيّ هيّ بلا مَلَل. هؤلاء نعجز عن إقناعهم بأيّ شيء يخالف قذوراتهم. نقول لهم : طوبى لكم بقذوراتكم !

ونتوجّه إلى المسلم فنقول له : إنّ القرآن مُحْكم واضح المعنى في ذاته وبذاته، ومُتشابه يحتاج إلى التأويل بقلوب سليمة لا زيغ فيها (آل عمران، 3 : 7)، وغيبيات. فيما يخصّ المتشابه والغيبيات عموما الله يتحدّث مع الإنسان في لغة الاستعارات وضرب الأمثال لأنّه لا توجد لغة غيرها للتعبير عنها بأسلوب يفهمه الإنسان كما أراد الله أن يكون. فكلّ ما ورد في القرآن، ويتعلّق بالخلق، وبالجنّة والكواعب الأتراب والأرائك وغيرها، وبالنار، وبالملائكة والجنّ، وبملكوت السماوات والأرض...الخ، من هذا القبيل.

الله مثلا خلق الإنسان من تراب. ويوسف المرتدّ الحرّ يعلم أنّه مع ذلك ليس بشقفة فخار، وإن كان ذلك كذلك فهو شقفة مليئة بالقذرات. وكي لا يلتبس عليه الأمر، وكي لا يحسب أنّ ذلك حقيقة، أقول له إنّها استعارة ومَجاز ! وذلك لِأنّني لم أجد أحسن من ذلك لِأخاطبه في اللغة الوحيدة التي يُجيدُها، وأحرز فيها على قصب السبق. وهذا من باب ضرب الأمثال. أقول له هذا أيضا لِأنّه من الجهل، أو التجاهل المسموم المقصود، بضرب الأمثال، كما يتّضح من قراءته المسمومة لكتاب الله، إلى حدّ أن قد يذهب به الظنّ أنّي أتحدّث عن سباق حمير حقيقة.

لا "*وُعود دعارة*" في القرآن، إنّما هي أمثال تُضرب لقوم يعقلون. يقول الله، فيما يخصّ الجنّة، إلى الذين يفهمون لغة الأمثال، حيث تعجز كلّ اللّغات البشريّة عن التعبير بغير الأمثال :

"*وبشّر الذين آمنوا، وعمِلوا الصالحات، أنّ لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار. كلّما رُزقوا منها من ثَمَرَة رزقا، قالوا : "هذا مَا رُزقْنا من قبْل." وأتُوا به مُتَشابها. ولهم فيها أزواج مُطهّرة. وهم فيها خالدون. إنّ الله لا يستحي أن يضرب مثلا مّا، بعوضة فما فوقها. فأمّا الذين آمنوا، فيعلمون أنّه الحقّ من ربّهم. وأمّا الذين كفروا،فيقولون : "ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟" يُضلّوا به كثيرا ؛ ويهدي به كثيرا. وما يُضلّ به إلاّ الفاسقين*" (البقرة، 2 : 25 – 26).

"*قلْ : مَن ربّ السماوات والأرض؟ قل : الله [...]. أنزل من السماء ماء، فسالت أودية بِقدَرها، فاحتمل السيل زَبَدا رابيا. وممّا يوقدون عليه في النار، ابتغاء حِلية أومتاع، زَبَدٌ مِثله. كذلك يضرب الله الحقَّ والباطلَ. فأمّا الزبدُ، فيذهب جُفاء. وأمّا ما ينفع الناس، فيمكث في الأرض. كذلك يضرب الله الأمثال* (الرعد، 13 : 16 – 17).

"*ألم تَرَ كيف ضرب الله مثلا : كلمة طيّبة، كشجرة طيّبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء. تُؤتي أكلها كلّ حين، بإذن ربّها. ويضرب الله الأمثال للنّاس لعلّهم يتذكّرون*" (إبراهيم، 14 : 24 – 25).

"*الله نور السماوات والأرض. مثل نوره كَمِشْكاة فيها مِصباح ... ويضرب الله الأمثال للناس، والله بكلّ شيء عليم*" (النور، 24 : 35).

"*وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلاّ العالمون*" (العنكبوت، 29 : 43).

"*ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كلّ مثل لعلّهم يتذكّرون*" (الزمر، 39 : 27).

إنّ هذه الأمثال، وغيرها، يتوجّه بها الله "*إلى قوم يعقلون*"، لا إلى غيرهم، لِأنّ العقل شرط في التكليف والفهم، ومن خصائص القرآن، الّتي لم يسبقه إليها أيّ كتاب سبقه من كتب البشريّة المقدّسة، هو أنّه غلق عهدا وفتح آخر في تاريخ الإنسانيّة كلّها : غلق عهد الفكر السحري (la pensée magique)، وفتح عهد الفكر العقلاني (rationnelle). الله يذكر العقل ويشيد به في نحو 40 آية، ولا ذكر له البتّة ولو مرّة واحدة في أيّ كتاب من الكتب المقدّسة المقامة كلّها على المعجزات الّتي تهزم العقل وتسحقه وتمحقه، لأنّ البشريّة لمّا تصل في تطوّرها إلى حدّ الفكر العقلانيّ والاقتناع به دون سواه. يقول، جلّ جلاله وتقدّست اسماءه! :

"*آلر! تلك آيات الكتاب المبين. إنّ أنزلناه قرآنا عربيّا، لعلّكم تعقلون* (يوسف، 12 : 1 – 2).

"*آلر! تلك آيات الكتاب. والّذي أنزل إليك من ربّك الحقّ، ولكنّ أكثر الناس لا يؤمنون. الله الّذي رفع السماوات بغير عِمَد ترونها*[إلى اليوم لم نكتشف سِرّ الجاذبيّة (gravitation)، وهذا من إعجاز القرآن العلمي، الّذي يعجّ بأمثاله، لا بالأخطاء، كما يقول السفيه يوسف الّذي لا عقل ولا ثقافة له]... وهو الّذي مدّ الأرض *[...] إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون [...] إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون* (هود،13: 1 – 4)

"*كذلك يبيّن الله لكم آياته، لعلّكم تعقلون* (البقرة، 2 : 242).

"*قد بيّنا لكم الآيات، إن كنتم تعقلون* (آل عمران، 3 : 118).

وقد ورد في القرآن التنبيه إلى إعمال العقل والفكر في آيات عديدة لا نستطيع هنا إحصاءها كلّها بنصّها، كما سبق. فنكتفي بالإحالة عليها بدون استيعابها بتمامها : البقرة، 2 : 242 ؛ الأنعام، 6 : 32 ؛ يونس، 10 : 16 ؛ يوسف، 12 : 109؛ النحل، 16 : 11 – 13، 65 -67، 69،79 ؛ النمل، 27 : 52 ؛ العنكبوت، 29 : 35 ؛ الروم، 30 : 23 – 24 ، 28 ؛ الزمر، 39 : 42 ؛ فصّلت، 41 : 3 ؛ الجاثيّة، 45 : 5 ،13.

يوسف المرتدّ ومَن هم على وتيرته فاسق، مرتدّ من الفضيلة إلى الدعارة، إلى أدعر دعارة، دعارة الكذب على الله والتلبيس والتدليس على عباده الأبرياء. القرآن كما سبق كلّه عقلانيّة.

مثل

جليلة المُلقِّبة نفسها بورِكْوًا (Pourquoi).

•

ننقل عنها، عن فايس بوك أيضا، وقد أربت عمّن سبقها عفونة :

SI LE CORAN était de Dieu, DIEU L'AURAIT CHANGÉ. COMME le coran n'est pas de Dieu, IL NOUS FAUT soit LE CHANGER - !, soit LE METTRE DE CÔTÉ. Ça la fout un peu mal, un livre soit disant saint, qui parle d'une Terre plate, qui avalise l'esclavage, battre les femmes, ET QUI INCITE À HAIR ET A TUER. IL FAUT QUE LES MUSULMANS SE FASSENT RESPECTER : ILS DOIVENT EXIGER LA REFORME OU L'INTERDICTION DU CORAN ! QU'ON ARRETE DE ME DIRE QUE C'est LA PAUVRETÉ QUI POUSSE LES MUSULMANS À DEVENIR JIHADISTES ASSASSINS. SI LES PAUVRES IMITAIENT JESUS, ILS NE TUERAIENT PAS !!! ILS IRAIENT LAVER LES PIEDS DES VIEUX ! VOUS ETES IGNOBLES DE CONTINUER À VOUS TAIRE SUR LES INNOMBRABLES VERSETS AUTORISANT LA PEDOPHILIE ET INCITANT À LA HAINE ET AUX CRIMES !!!!! **Pour quoi** : L'ISLAM : LA SECTE DU MAL : UNE SECTE À ERADIQUER !!!! **Commentaire article 3 de l'association** : ok, je commente, il est dit, art. 3 « L'Association est déterminée par la rationalité, car le livre d'Allah ne contredit pas la raison." 1) ALLAH N'A STRICTEMENT RIEN DIT. 2) le coran CONTREDIT non seulement LA RAISON (il dit que la terre est plate, et autres incongruités) MAIS AUSSI LA MORALE : IL INCITE À -BORDEL-À-HOURIS. A MEPRISER, HAIR ET TUER, ET EN PLUS, IL PROMET DES RECOMPENSES POUR ÇA : LE PARADIS DU VICE , LE TBARNA Demande à **Talbi**, il va te dire à quel point je connais l'islam. La difference entre lui et moi, c'est que moi je dis la vérité, et lui ..... fait des voeux pieux .

ما نقلته عن جليلة بوركوا، من21 صفحة كلّها قذورات هيستيريّة، قُلٌّ من كُثر. وكلّه بدون استثناء منقول عن الاستشراقيّة المسيحية، وفيه نقول حرفيّة طويلة عن مستشرق يُدعى ميشال دي رودّار (Michel de Rudder)، يغلب على الظنّ أنّه راهب مقيم بتونس، وأنّه من الّذين يزوّدونها بقذوراتها، تَعِس الزاد والمُزوِّد والمُزَوَّدة ! .

ما قرأته في كامل الصفحات، يجعلني أتساءل عن صحّة مداركها العقليّة. كلّ شيء في أسلوبها، في خروجها من موضوع إلى موضوع، في أكاذيبها وفي عفونة قذوراتها الّتي تنسبها إلى الإسلام وإلى القرآن، وخاصّة إلى رسول السلام – عليه أفضل صلاة وسلام ! -- يدعو إلى الاعتقاد أنّها مصابة بالجنون الديني.

ولقد انصبّ جام غضب العفنة جليلة عليّ بالخصوص. فهي لا تفتأ تدعوني باسمي، وتشتمني بكلّ الشتائم، وتلحّ كي أجيبها، وكي انسلخ من الإسلام كما انسلخت منه في سنّ مبكرة كما تقول، لِما وجدت في القرآن، حسب قولها، من أباطيل، وفي حياة الرسول من

قذُورات، على الخصوص جنسيّة. لقد أعرضت عنها طويلا، حتّى إلى أن ألفِتَ انتباهي إلى سوء تأثيرها على المسلم العادي الّذي أكتب إليه هذه التذكرة.

وأنا مضطرّ إلى أن أجيبها في اللّغة الوحيدة الّتي تفهمها هي وأمثالها، "وتُعرّفُها قدْرها"، كما يقول المثل الشعبي التونسي، وهو قدْر رديئ جدّا. فمَن هي؟ هي نّكِرة أنكر من الّذي سبقها، لم تكتب شيئا. وكلّ ما أعلم عنها هو أنّها متزوّجة من مسيحيّ، والأقرب من الظنّ هو أنّها انقلبت إلى دينه. مهما يكن الأمر فهي شديدة الإعجاب بيسوع المسيح رمز الطهارة، وتقارنه بمحمّد، فتصبّ عليه وعلى القرآن كلّ القذرات الّتي تغترفها كلّها من اتّهامات المسيّحيّة، وبذلك تزوّدها بالمنقلبين إليها، ولا يبعد أنّ ذلك بأجر.

تقول إنّ الفرق بيني وبينها هو أنّني أكذب، وأنّها تقول الحقّ، وإنّي أعرف أنّها تعرف الإسلام. وأنا أعرف وأشهد أنّها تكذب وتحرّف وتشوّه وأنّها لا تعرف من الإسلام شيئا ما سوى التشويهات المسيحيّة الّتي زوّدها بها مزوّدها، وبئس المزوِّد والمزوَّدَة ! فلا قذُرَة من القذرات الّتي تنسبها إلى الإسلام إلاّ ونعلم مكانها في طوفان كُتُب الاستشراقيّة المسيحيّة من جان الدمشقي (Jean Damascène, 650-749) الّذي أكل خبز الأمويّين، وعاش وكتب قذوراته ضدّ القرآن والنبيّ، في رعايتهم وحمايتهم له من مخالفيه من أهل دينه، إلى يومنا هذا[5]. ذلك لأنّ القرآن يحمي أهل الكتاب المقيمين في دار الإسلام.

1 قولها : « Une terre plate ». هذا دليلٍ على جهلها بالإسلام والقرآن. نقول للمسلم، لا لها، إنّ الله يقول : " *ألم يَرَوا أنّا نأتي الأرض، نَنْقُصُها من أطْرافها؟*" (الرعد، 13 : 41). وهذا من الإعجاز العلمي الّذي يعجّ به كتاب الله. الله يخاطب العقل، وينبئ بما لم يكتشفه العلم إلاّ حديثا : زيادة عن أنّ الأرض لها أطراف، إذن جُرْم كُرَوي، أنّ الأرض ليست مع ذلك مستديرة استدارة هندسيّة (géométrique)، وهذا ما يعنيه قوله "*نَنْقُصُها*"، وهو ما لم يكن يعلمه أحد قبل عصرنا. ويقول جلّ جلاله :

" *أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت ؟ وإلى السماء كيف رُفعت ؟ وإلى الجبال كيف نُصِبت ؟ وإلى الأرض كيف سُطِحت ؟*" (الغاشيّة، 88 : 17 – 20).

المخاطبة أيضا إلى العقل، لِأنّ القرآن، كما سبق، كلّه عقلانيّة. الله يدعو الإنسان إلى إعمال عقله كي يكتشف، في كلّ شيء، الكيف في أسرار الخلق، ومن ذلك : خلق الإبل، أيّ كلّ ما هو حَيّ، وهذا ما يفعل علماء عِلم الأحياء (biologie) ؛ رفع السماء، أيّ تماسك الأجرام السماويّة، وهذا ما يفعل علماء عِلم طبيعيات النجوم (astrophysique)،

[5] Nous renvoyons à notre ouvrage, *Rénovation de la pensée musulmane, Benoît XVI.*

وما زال سِرّ الجاذبيّة (gravitation) يحيّرهم ؛ الجبال وتسطيح الأرض، أي كيف نشأت التضاريس (le relief) الأرضيّة، وهذا ما يتعلّق بعِلم الجيولوجيّة، وأصبحنا اليوم لا تخفى علينا منه خافيّة، وبذلك حقق الإنسان ما طلب الله منه أن يفعل بالنظر والبحث عن *"الكيف"* في كلّ شيء. لكنّ الّذين اختاروا العماء عن قصد ورويّة، فنحن لا نستطيع لهم شيئا : " *لَعَمْرُكَ إنّهم لفي سَكْرَتِهم يَعْمَهون*" (الحِجْر، 15 : 72).

2 قولها : "avalise l'esclavage " : نقول للمسلم، كي لا ينطلي عليه هذا الكذب السافر. القرآن وُجد الرقّ، ولم يخترعه. الرقّ كان على الخصوص من أسُس الحضارة اليونانيّة، وأرسطو برّره فلسفيا وإنسيا (anthropologiquement) إلى حدّ أنّ الأحرار كانوا أقليّة بأثينة. وقد أقيمت الحضارة الرومانيّة على الرقّ. كان فيها المسترَقّ متاعا، لصاحبه الحقّ أن يقتله إذا ما شاء. وثورة الرقيق مشهورة في روما. وحافظت المسيحيّة، الّتي تتباهى، كذبا وبهتانا، أنّها دين المحبّة، على الاسترقاق وبرّرته في أشنع مظاهره بحجج دينيّة. فمن المحبّة أفرغت المسيحيّة - دين العفنة جليلة المفضّل الذي تضرب به المثل في الشفقة والرحمة (يسوع يغسل الأرجل) - إفريقيا من سكّانها، وكدّستهم في السفن، تكديس الحيوان وأتعس، إلى حدّ موت الكثير منهم قبل بلوغهم إلى الأسواق الأميريكيّة، وكان المِناء الفرنسيّ نانت أكبر محطّة في طريق التسويق. وباركت المسيحيّة على لسان البابا نيكولا 5 (Nicolas V, 1447-1455)، ممثّل يسوع ابن الإله في الأرض، هذه التجارة المُرْبحة، واغتنمت هذه الفرصة السعيدة لتمسيح السود المسترقّين، وقد بلغ عددهم 200 مليون نسمة، قهرا[6].

[6] Nous renvoyons à : Assani Fassassi, *Le Péché du Pape contre l'Afrique*, éd. Al-Qalam, Paris, 2002, dont nous citons les passages suivant :

Justification biblique de l'esclavage : «*Maudit soit Canaan ! Qu'il devienne le dernier des esclaves de ses frères !* » (Gn., 9 : 25), cité par A. Fassassi, p. 72. Ainsi l'esclavage de tous les descendants de Canaan, fils de Noé, dont les Africains, se trouve justifié par le Dieu de la Bible, justification donc divine, irréfutable indiscutable et éternelle.

Justification par l'infidélité au Christ : « *L'infidélité des Africains à Jésus-Christ justifie leur esclavage* » même source p. 72.

Soutien de l'institution pontificale et des Eglises, même source :

« *Le Pontife romain Nicolas, Successeur de Saint-Pierre et Vicaire de Jésus-Christ...ordonne de ramener à l'unique bercail du Seigneur les brebis à lui confiées...et cela se fera d'autant plus sûrement que Nous aurons comblé de dignes faveurs ... ces Rois et Princes catholiques ... qui répriment la barbarie des Sarrasins et des autres infidèles... (p. 11) ; de soumettre aussitôt quelques peuples païens...infectés de la doctrine de l'abominable Mahomet...(p. 13). La traite négrière transatlantique a emporté, déporté et fait périr plus de 200 millions d'Africains en moins de quatre siècles (p.66). Insistez particulièrement sur la soumission et l'obéissance. Evitez de développer l'esprit critique dans vos écoles. Apprenez aux élèves à croire, et non raisonner...Evangélisez les Nègres à la mode des Africains... Qu'ils ne se révoltent jamais contre l'injustice...Faites leur méditer chaque jour « Heureux ceux qui pleurent, car le Royaume des cieux est à eux. »Convertissez les Noirs au moyen de la chicote*

وبقي الاسترقاق على حاله، لم يستطع أحد أن يحجّره ويمنعه، إلى منتصف القرن الثامن عشر، وكانت الدول الإسلاميّة في مقدّمة مَن استجابوا إلى منعه، اعتمادا على القرآن. وحرب تحرير الرقيق في الولايات كانت قاسية بصورة مخجلة، وطويلة ودامية. وهذا في عصرنا المتحضّر، وفي بلد يُضرب به المثل في العمل بأسمى القيم الإنسانيّة ! باختصار، كان وضع الرقيق على حالة من السوء والانتشار في كلّ ربوع العالم، بحيث كان من الخيال أن يحرّمه الله دُفعة واحدة في القرآن، أيّ في القرن السابع، قرن طُغيان المسيحيّة. في هذه الظروف، عملا بالواقعيّة وفي انتظار أن تتغيّر العقليات، بلغ القرآن في تحسين وضع الرقيق أقصى ما كان مُمْكنا. لقد أخرج الله لأوّل مرّة في تاريخ العالم المسترَقّ من وضع المتاع، إلى وضع الإنسان وضمن له الكرامة الإنسانيّة كغيره من عباده. فضمن له كلّ الحقوق الإنسانيّة الأساسيّة وإن كانت بطبيعة الوضع منقوصة ؛ وضبط واجباته تجنّبا لاختراق حدودها ؛ واشترط أن يعامله مولاه كما يعامل أفراد عائلته، في ملبسه ومَطعمه ومسكنه ؛ وأعطاه الحقّ في الزواج ؛ وفي العمل في جُزْء من وقته، ليكتسب ويشتري حريّته ؛ وحرّض على الخصوص على تحرير الرقاب، وجعل من ذلك كفّارة على بعض الذنوب ؛ بل فرض في مال الدولة الإسلاميّة نصيبا لتحرير العبيد (البقرة، 2 : 177).

3 قولها : "battre les femmes." كان ذلك رُخْصة مشفوعة باستنكار، بعد محاولة مَنْع تسبّبت في اضطرابات اجتماعيّة خطيرة. ثمّ نذكّر جليلة العفنة، التي تعشق المسيحيّة، بوضع المرأة في هذا الدين وفي اليهوديّة، ويستحيل هنا تفصيله. نذكّرها وأمثالها أنّ ضرب المرأة ليس مقصورا على الإسلام. نذكّرها أنّ اليوم، في فرنسا، امرأة تموت كلّ ثلاثة أيّام من تأثير ضرب زوجها لها. عفوا! لا نذكّرها، لأنّ السمّ يسكن قلبها، فلا تنفعها الذكرى. نذكّر المسلم الغير مطّلع الذي تنفث فيه سمّها كذبا وبهتانا.

4 قولها : "LA PEDOPHILIE." كلمة تعني الفسوق في الصبيان خاصّة، وفي القصّر من ذكور وإناث بصورة أعمّ. وبها تشير السيّدة الجليلة إلى زواج محمّد – الذي خصّه الله بقوله "*وإنّك لعلى خُلق عظيم*" (القلم، 68 : 4) – من عائشة وهي صبيّة قاصرة

(fouet) (p. 69). « L'esclavage, que les Ecritures Saintes ne condamnaient pas, était alors chose admise ; aussi les expéditions négrières se firent-elles avec la bénédiction des Eglises. On donna aux navires négriers des noms issus de la Bible (Abraham, David, Salomon), ou des Evangiles (Pierre, Luc ...). Le Saint-Esprit, Saint-Joseph...eurent du succès (p. 114). La récolte est suffisante et nous l'arrêtons là. J'espère que Mme Jalila (La Glorieuse) est satisfaite.

(mineure) ساحرة الجمال، وتتّخذ من ذلك دلالة على فسوقه وتشنّع به عليه. ولقد أخذت ذلك خاصّة عن المسيحيّة الّتي سبقت إلى هذا التشنيع وجعلت منه أشنع ما يشنّع به عليه، وهي منذ قرون تلوك هذا العِلك بلا ملل. ولقد انتشر هذا التشنيع في صفوف الانسلاخسلاميين انتشارا عريضا إلى حدّ أنّي شاهدتُ وسمعت سيّدة، نائلة باهي، عليها كل علامات الفضل والنعمة والرخاء، تشنّع بذلك نبيّ مكارم الأخلاق، وقد حضرت ندوة تدبّر القرآن في جمعيّتنا. فوجب وضع النقاط على الحروف.

الزواج بالقاصرات ظاهرة بشريّة عامّة في كلّ الحضارات منذ القدم وليست مقصورة على العرب. كان القانون الروماني مثلا يحدّد زواج الصبيّات في سنّ 12 سنة. والإحصائيات، مثلا أيضا، تفيد أنّه بفرنسا، في 2013، بلغ عدد الحاملات بدون زواج، بين 15 و17 سنة، 10.000، مع إهمال الأباء لِابنائهم، أيّ بمعدّل 40،27 في كلّ يوم، ومنهنّ مَن هنّ دون ذلك سنّا. هذا مع توفّر، مجانيا.لهنّ، كلّ وسائل الوقاية من الحمل، وتوفير الإجهاض لهنّ بدون شروط مع الكتمان! وفقدان البكارة، عند الأمم الغربيّة الأكثر حضارة وتقدّما، كثيرا ما يقع اليوم عند الصبيّات بمجرّد بلوغ الحيض وذلك بنسب مرتفعة جدّا وفي ارتفاع متزايد بسرعة كلّ يوم. في هذه الحال، فما هو الأفضل؟ منع زواج القاصرات، مع التهويل والدعوة بالويل والثبور وعضائم الأمور، كأنّ السماء انشقت، وكأن الأرض دُكّت دَكّا دَكّا "*وأذِنَت لِربّها وحُقّت*" (الانشقاق، 84 : 5)؟ أقول للمسلمة والمسلم التشنيع في كلّ مضخّمات أصوات الانسلاخسلاميّين وأبواقهم ليس في محلّه. إنّما هو سُمّ قطّرته المسيحيّة، وأخذه عنها شياطينها، المزوّدون لها، بأجر وبدون أجر، بالمنقلبين إليها. ثمّ أسأل مرّة أخرى : أليس، في هذه الحال، الأفضل عدم الانجرار في التشنيع على رسولنا وقدوتنا، بل الترخيص في زواج القاصرات، وعند الاقتضاء بشروط وضمانات؟ أترك الجواب للقارئ.

كيف تمّ زواج محمّد بن عبد الله بعائشة بنت أبي بكر؟ كانت أمّ المؤمنين عائشة موعودة بها منذ الصغر، طبق تقاليد لمّا تنقرض تماما في مألوفنا، لرجل غير محمّد، وكان في الإمكان أن تتزوّج به حسب العُرف الّذي كان به العمل، ولم يكن هناك، في زمن النبي وبيئته، مَن يستنكره. كان أمرا عاديا، لا عند العرب فقط كما تقدّم. خطبها محمّد، وكان في غاية الجمال، أبيض كالثلج أشقر الشعر. كان محمّد – عليه أفضل صلاة وسلام ! – من الجمال بحيث كان العديد من النساء يرغبن في الزواج منه ويعرضن أنفسهنّ عليه. أرسل أبو بكر عائشة إليه، ومعها طبق من الغلال سلّمته إليه. فأخذه منها وقال لها، قولي لأبيك : "قبلنا." وتمّ الزواج بمكّة. غير أنّ النبيّ لم يدخل بها إلاّ في المدينة، لا ندري في أيّ سنّ، قد يكون 12 سنة، لأنّه بطبيعة الحال لم يَشْهد ذلك أحد، وبطبيعة الحال أيضا لم يُشْهد زوجها ذلك أحدا. كلّ ما يُرْوى إذن في سنّ دخول محمّد بزوجه عائشة تخمينات. هناك يقين واحد : لم يدخل بها إلاّ عندما رغبت في ذلك. لقد أحبّ محمّد عائشة من كلّ قلبه،

وبادلته الحبّ. فهل في كلّ هذا ما يشنّع به على رسول الله إلى الناس كافة وجميعا، لا ليبلّغ فقط، بل ليكون لهم قدوة أيضا؟

لقد كتبت مقالي مُرْسي (Magali Morsy) كتابا بعنوان *نساء النبي*[7] جاء فيه : " *لقد وجدت عائشة في الزواج الحُبّ، وذلك في كلّ المستويات. كان مع ذلك فارق السنّ كبيرا : كانت لم تكد تصل سنّ البلوغ، حين وجدت نفسها لها زوج ناهز الخمسين. مع ذلك كان لها الزواج مَنْبع الازدهار. كان ذلك كذلك لما كان عليه النبيّ من الاحترام لشخصيّة الغير، احترام يجمع بين الرقّة واللّطف.*"

أقول للسيّدة التي ليست جليلة ما سوى في القذرات، إن تبحثين عن الفسق فالتمسيه عند عشيقك يسوع بن الإله، الذي لم يكن، كما تقولين، يغسل أرجل الشيوخ، بل كان يفسق في الصبيان، ورهبانه اليوم على سنّته، كما كانوا عليها قديما، إذ يقول الله فيهم : "*وكثير منهم فاسقون*" (الحديد، 57 : 27). يسوع ابن الإله. والإله، وابن أمّ الإله التي أخصبها إخصابا حِرْمانِيا (incestueux) كإله، ولا فسوق أرذل من هذا الفسوق وإن كان سماويا، كان شغوفا بالفسوق في الصبيان إلى حدّ أنّه كان له مَن يزوّده بهم، ممّا أزعج أصحابه، فكانوا يحاولون إبعادهم عنه، فكان ينهرهم قائلا : " *دعوا الصغار يأتون إليّ، ولا تمنعوهم*"(إنجيل متّى، 19 :14)، أيّ كي أفسق فيهم. وكانوا لا يزالون يمارسون هذه المهنة على الطريقة اليونانيّة، بالرغم من تحريم موسى لها. وكان يسوع، لتفضيله الظهر على البطن، يرغّب في الاخصاء، وكانت ممارسة الجنس مع الخصيان تجارة رابحة لشدّة الرغبة فيهم، وكان الثمن مرتفعا، لِأنّ العملية كانت كثيرا ما تُؤَدّي إلى الموت. فكان يكرّه في الزواج، إلى حدّ أن قال له أتباعه يوما :

" *إن كانت هذه حالة الزوج مع الزوجة، فعدم الزواج أفضل. فأجابهم : "هذا الكلام لا يفقهه الجميع، بل الذين أنعِمَ عليهم بذلك. فإنّ بعض الخصيان يولدون من بطون أمّهاتهم خصيانا؛ وبعضهم قد خصاهم الناس؛ وغيرهم قد خصوا أنفسهم من أجل ملكوت السماوات. فمن استطاع أن يفقه هذا فاليفقة*" (نفس الإنجيل، 19 : 11 – 13).

فِقْه هذا الكلام نجده فيما يلي : المقرّبون في " *ملكوت السماوات*" عددهم 144.000، " *لم يُنَجِّسوا أنفسهم مع النساء*" (الرؤيا، 14 : 4)، لأنهم كانوا، كيسوع ابن الإله، يفضّلون الظهر على البطن، وأفضل الظهور، ظهور الخصيان. وكان ليسوع غُلام جميل، جمالَ آلسيبياد (Alcibiade) اليوناني الذي راود سقراط على نفسه ليلة كاملة بلا

[7] *Les femmes du Prophète*, Mercure de France, 1989, nous citons p. 55.

جدوى، اتّخذه خدينا، لا يذكر أحد من الإنجيليّين اسمه، وإنّما يُكنّونه *"بالتلميذ الذي يحبّه يسوع."* وهذا التلميذ الخدين كان لا يفارقه حتّى على مائدة الطعام، حيث نراه يوم المائدة مُضطجعا *"مُتّكئا على حِضْنِهِ"*، يميل على صدره ليلقي عليه سؤالا (إنجيل يوحنا، 13 : 23 – 24). وكان يسوع، مهما كان تفضيله الظهر على البطن، لا ينسى نصيبه من البطن. لقد كان يعاشر بغيّات الترف (les courtisanes de lux) الجميلات[8]. السيّدة الجليلة في القذرات ترى أنّ القرآن كلّه قذرات، كلّه احتقار وحقد وقتل (mépriser, haïr et tuer). هذا ما أخذته عمّن زوّدها بدين يسوع المحبّة.

أقول، لا لها، وإنّما للمسلم الّذي تحيّره قذراتها : لقد رأينا إلى مَن تذهب محبّة يسوعها. أمّا بالنسبة لغيرهم، فإنّه يحتقر ويحقد ويقتل. المسيحيّة هرطقة يهوديّة. منها أخذت كيف تحارب مُحاربة مُقدّسة (sacrée) – ولا وجود لمثل هذا في القرآن – فيها يأمر الإله، أمرا إلاهيا لامُعقّب عليه، بكلّ نسمّيه اليوم بالجرائم الحربيّة. يأمر باستئصال المغلوبين جميعا، باستثناء الأطفال والنساء الّذين مصيرهم الأسر كمتاع لإسرائيل. اليهوديّة-المسيحيّة هيّ الّتي نظّرت دينيا للجرائم الحربيّة ومارستها على أوسع نطاق. والقرآن هو أوّل نصّ عالمي حرّم حرب الاعتداء، وجعل للحرب في كلّ الحالات قوانين وحدودا، وحرّم كلّ الجرائم الحربيّة بكلّ أنواعها[9]. ننقل عن الكتاب المقدّس :

" *عندما يفتح لك بلادا إلهك يهوه ... تستأصل كلّ الشعوب الّتي إلهك يهوه يسلّمها إليك من دون أن ترأف عليهم ... إلهك عظيم ومُرعِب. إلهك يهوه يطرد كلّ الأمم أمامك، يطردهم شيئا فشيئا. لا تستطيع أن تقضي عليهم كلهم حالاً، لِأنّ الوحوش تتكاثر عندئذ، بأعداد كبيرة ضدّك. لكنّ إلهك يهوه يسلّم لك هذه الأمم، ويلقي عليهم فزعا كبيرا حتّى ينقرضوا كلّهم* (التثنيّة، 7 : 14 -23).

" *الحرب المقدّسة : عندما تخرج لتقاتل أعدائك ... عندما تقترب من مدينة لتقاتلها، فتعرض الصلح على أهلها. فإذا ما استجابت وقالت "لنعقد الصلح"، وإذا ما فتحت أبوابها، فكلّ مَن يسكنها تُفرض عليهم السُخْرَة (corvée) لصالحك، ويخدمونك. لكن، إذا ما لم تستجب للصلح معك، وبادرت بالقتال، عندها تحاصرها. وإلهك يهوه يُسلّمها بين يديك. فتضرب بحدّ السيف أعناق كلّ الرجال. وتحتفظ فقط، كغنيمة، بالنساء، والأطفال، والأغنام، وبكلّ ما في المدينة، بكلّ الأسلاب... هكذا تصنع بالبلاد القريبة منك... أما البلاد البعيدة ... فإنّك لا تترك فيها حيّا إلاّ قتلته*" (التثنيّة، 20: 1 ، 10 – 16).

---

[8] Nous ne pouvons tout citer. Pour une étude exhaustive, nous renvoyons à notre ouvrage *Histoire du Christ*, p. 367-372 ; 470-479.

[9] Marcel A. Boisard, *L'Humanisme du Coran*, Albin Michel, 1979, p. 254, 256-9, 265-274.

بهذا عمل يسوع، لا كبشر يفنى ويمرّ وينتهي أمره وما عمل، وإنما كإله، وابن الإله، وابن أمّ الإله، وإله ذي رؤوس ثلاث. بكلّ هذه الصفات المتجمعة فيه، والتي تعطيه السلطة المطلقة على كلّ شيْ إلى أبد الأبيدين، أعلن يسوع الحرب العالميّة الأبديّة على كلّ مَن يرفض أنْ يعمّد، قائلا إلى كلّ الأساقفة (apôtres) ومَن يتبعهم من رهبان :

" *إنّي أعطيت السلطة المطلقة في السماء والأرض. إذن اذهبوا : اجعلوا من كلّ الأمم إليّ أتباعا. عمّدوهم باسم الأب، والابن، والروح القدس*" (متّى، 28: 18-19).

كيف العمل مع مَن يرفض؟ العمل بما أمر به يسوع مُعْلِنا عليهم الحرب العالمية المؤبّدة حتّى يقبلوا التعميد، وبذلك عملت كنيسته كلما استطاعت إلى ذلك سبيلا. قال يسوع :

" *لا السِلم، بل السيف. لا يذهبنّ بكم الظنّ أنّي أتيت بالسلم على الأرض. لم أت بالسِلم، لكن بالسيف مُؤكد. نعم ! إنّي أتيت لأفرّق بين الرجل وأبيه، بين الفتاة وأمّها، بين الكنّة والحماة. المرأ يصبح أعداءً له أهلُ بيته*" (إنجيل متّى، 10 : 34 – 36 ؛ ولوقا، 12 : 51- 53).

كيف نصف هذا الإعلان المؤبّد؟ هل يوجد أشوم منه وأشنع في العالم كله منذ بدأ الخلق على وجه الأرض. بهذا الإعلان المؤبّد، الّذي لا مردّ له ولا جدال فيه، لصدوره عن الإله وابن الإله وابن أمّ الإله بعد التفكير والتأمّل في رؤوسه الثلاث، عملت كنيسته. لقد رأينا كيف أفرغت إفريقيا من سكّانِها وصيّرتهم عبيدا مُرغَمين على الانقلاب إلى دينها. بل أربت على ذلك، فأفرغت أميركا من سكّانها الحُمْر، واقتلعت من أحضان الأمّهات أطفالهنّ الرُضّع، وقسّمتهم أرباعا، وأطعمت بهم كلاب الغُزات. بعد هذا كله تتجاسر السيّدة الجليلة في القذرات، مُتزوّدة – لا شكّ بأجر – بما زوّدها به يسوعها العزيز على قلبها، أن تكتب "أنّ القرآن كلّه قذرات، كلّه احتقار وحقد وقتل."

أقول للمسلم : القرآن كلّه رحمة. ما من سورة منه إلاّ وتبدأ بقوله بـــــــسم الله الرحمان الرحيم. تجنّبا للإطالة أكتفي بالإحالة على هذا الكتاب[10]. وأمام قذرات الأجيرة جليلة كيف لا استشهد بهذا البيت :

لو كلّ كلب عوى ألقمته حجرا * لأصبح المثقال من حجر بدينار.

[10] Je renvoie à mon livre : *Gaza, Barbarie biblique et Humanisme coranique, textes comparés à l'appui*, Tunis, 2010.

مثل

عياض ابن عاشور، صاحب الفاتحة الثانية

فاتحة إسلام بلا إسلام، صاحبها لا يختلف عمّن سبقه

الفاتحة الثانيّة[11] تُلغي الفاتحة الأولى، وكاملِ القرآن ما سواها، وتعوّضهما بحقوق الإنسان. الفاتحة الثانيّة تحتوي أربع عشرة آية من سورة الإسراء (17 : 23 – 37)، نجدها بنصّها العربي في صورة من المصحف على غلاف الكتاب، وفي ترجمة شخصيّة داخله (ص. 21 – 22). وكان في الإمكان الاستغناء عنها، والاكتفاء بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الذي سبقه القرآن بما يزيد عن 13 قرنا.

فما ألجأ عياض ابن عاشور إلى الإحالة على القرآن؟ التقيّة، وغَمْر فِكْره الحميم في لُبَد من غاسق الضبابيّة، فكره الحقيقيّ الذي يُميط عنه اللثام، أو القِناع، لأوّل مرّة في كتابه هذا الأخير. ذلك أنّ غاية عياض بن عاشور في هذا الكتاب التخلّص من الإسلام، من إسلام الإيمان والإلتزام بكتاب الله، لِيُحِلّ مَحَلّه إسلاما إرْثا ثقافيا بلا إيمان وبلا واجبات، يلعب فيه القرآن، الذي لا يصفه أبدا بكلام الله المُنَزّل والمُلزم كلّه، دَوْر إلياذة هومروس. ثمّ يُلبّس ويُدلّس ويوهم أنّ هذا الإسلام بلا إسلام، إسلامٌ، بل عين الإسلام وحقيقته، ويستدرج هكذا المسلم العادي ليقع في غوايته، وهذا قصده وبيت القصيد من كتابه كغيره من المنسلخين عن الإسلام. *الفاتحة الثانيّة* كلمة حقّ، من حيث هي منقولة من القرآن، يُريد بها عياض ابن عاشور باطلا. كيف ذلك؟ عياض ابن عاشور يكتب :

"*أن نُلغي الحرفَ، لأنّ الحرف يقتل، فبذلك نُحْيِ الروح. الذي يُلهمني هذه الكلمة الرائعة معروف. أنْ نُلغي الحرف، ذلك لا يعني أنّنا نلغي الإسلام، بل العكس، نُغيّر محيط الجهل والحماقات التي هو غائص فيها في أيّامنا هذه. هذا، عدد كبير من المفكّرين المسلمين قد فهموه*" (الباب 9 "الحرف والروح")

"*عوض أن نطيل بكثير من المواضبة في الوسائل الحلال والحرام : كيف نشرب ونأكل، كيف نجامع، ونعطس، ونتثائب، ونتكرّع، ونَخْرَأ، وننام، ونستيقظ، ونلبس،*

---

[11] Yadh Ben **Achour**, ***La deux****ième Fâtiha, L'islam et la pensée des droits de l'homme*, PUF, Paris, 2011.

ونغتسل، ونَحْلق، ونتغطّى، ونكتب، ونمشي، ونَرث. المسلمون يجب أن يتذكروا، أن يتذكّروا أنّه "ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب"، وأن يتأمّلوا في هذه الآيات من 23 إلى 37 من سورة الإسراء، سورة بني إسرائيل، التي استبيح لنفسي أن أسمّيها الفاتحة الثانيّة، وذلك لجلال استلهامها[12]. "

عياض ابن عاشور لا يذكر أبدا النبيّ – عليه أفضل صلاة وسلام -- ! ولا يقول أبدا إنّ القرآن كلام الله، وكلام الله مُلزم كلّه، لا نأخذ منه ونترك. المسلم يأخذه كلّه، والكافر يتركه كلّه. عندما يتحدّث عن الآيات التي نقلها من سورة الإسراء – يقول بترجمته الخاصّة – لا يقول أنّها منزّلة بوحي من الله. إنّما هو اختارها " *لجلال استلهامها* (*la majesté de son inspiration*)." من أين جاءها هذا الجلال، ومن أين جاءها على الخصوص استلهامها؟ عياض ابن عاشور لا يقول إنّ ذلك من الله وبوحي وتنزيل منه. جاء ذلك من مأسسة تأليف القرآن كعمل بشري عبر التاريخ، كما فصّل القول في ذلك عبد المجيد الشرفي، الّذي يذكره ويستلهمه بإعجاب. القرآنُ إذن عمل بشريّ صاغه التاريخ، " *مليء بالروائع الخطابيّة*[13]"، ومنها آيات سورة الإسراء التي تؤسّس لحقوق الإنسان، "*وتمتاز بأنّها، في أسلوب مُرَكّز تَوْليفي تُوجّه، على السواء، المعتقدين وغير المعتقدين، نحو أخلاقيّة، عالميّا مقبولة، كُمونيّا في وسعها أن تُلهم قانونا حَدَثِيّا*[14]."

كتاب عياض ابن عاشور تغمره ضبابيّة غاسقة مقصودة لغايتين. أوّلا التقيّة، وفي تونس اليوم هذا احتياط ضروريّ. ثانيا، الكاتب يريد أن يوهم أنّه مسلم حقيقي وحداثي، يستحقّ الاقتداء به، وذلك قصد تصيّد المسلم المغترّ الحيران، الّذي يبحث عن إسلام حقيقيّ، إمانيّ وحَداثي، يصالح بينه وبين عصره. وهنا يكمن الخبث والخديعة. عياض ابن عاشور يقول إنّ فاتحته الثانيّة تُوَجّه على السواء، "*المعتقدين وغير المعتقدين.*" كي تُوجّه "*غير المعتقدين*"، وتُرضيهم، يجب أن تكون بلا إيمان وبلا قرآن، وهي كذلك.

إذا ما أجلينا الضبابيّة، الّذي يتجلّى لنا، هو أنّ الإسلام، في نظر عياض ابن عاشور، صنفان : إسلام الحرف؛ وإسلام الروح. إسلام الحرف، هو إسلام الخراء، الّذي يجب أن نتخلّص منه، ومن أجل هذا كتب الفاتحة الثانية، فاتحة بلا إيمان وبلا قرآن. يجب أن نتخلّص من إسلام الحرف والخراء، كي نُحْي ولا نُبقي إلاّ إسلام الروح، وهو إسلام حقوق الإنسان، حقوق لا دين لها ولا معتقد.

هذا كلّ ما في كتاب الفاتحة الثانيّة، وما تبقى كلّه حشو ومُبتذلات لا حاجة إليها، نجدها أكداسا في كلّ الكتب والمجلاّت الّتي تعتني بالإسلام، وحتّى في الصحف، في كلّ لغات العالَم الكبرى؛ كلّ ما تبقّى، زيادة على الحشو والابتذال، كلّه ضباب وتضليل.

---

[12] *الفاتحة الثانيّة*، ص. 21 .

[13] نفس المصدر والصفحة.

[14] نفس المصدر ونفس الصفحة.

عياض ابن عاشور من بيت عِلم وعلماء. جدّه الطاهر ألف *التحرير والتنوير* في تفسير القرآن، الذي يستهزئ به ويسخر منه حفيده ! " *إنّك لا تهدي مَن أحببت. ولكنّ الله يهدي مَن يشاء* (القصص، 28 : 56). ما رأي مَن تتلمذوا عن جدّه فيه؟ لا شكّ أنّهم لا يعلمون، كما أنّهم لا يعلمون مَن اتخذوا منه رئيسا للهيأة التي مهّدت لانتخاب المجلس القومي التأسيسي، كما أنّ الشعب عموما لا يعلم. وما كنّا لنهتمّ به لو لم يهتمّ بنا، ولولا تلبيسه على المسلم الذي نهتمّ به في هذه التذكرة. عياض ابن عاشور، أكثر من أمثاله، وقد ذكرنا منهم ثلّة في غير هذا الموضع، يَحِقّ فيه قوله تعالى : " *واتْلُ عليهم نبأ الذي أتيناه آياتنا، فانسلخ منها، فأتبعه الشيطان، فكان من الغاوين*" (الأعراف، 7 : 175). فهو يغوي ويضلّ. فلو اكتفى بنفسه لعملنا بقوله تعالى "*عليكم أنفسكم. لايضرّكم مَن ضلّ إذا اهتديتم*" (المائدة، 5 : 105). فهو من الذين نصفهم بلانسلاخسلاميّين، وهو يضجر ويهزأ من هذه العبارة ويُسيئ فهمها. وإنّما نحن نَحَتْناها من قوله "*فانسلخ*"، تجنّبا لاستعمال كلمة ردّة التي شحنتها الشريعة بما ليس فيها. نحن نستعمل عبارة "الانسلاخسلامية" (désislamisation)، "والانسلاخسلامي" (désislamisé)، لأنّنا لم نجد أفضل منهما للتعبير عن ظاهرة عالميّة اشترك فيها على الخصوص الإسلام والمسيحيّة : déchristianisation déchristianisé.

عياض ابن عاشور يرى في فاتحته، كما وصفناها وأمطنا اللثام عنها، خاتمة حركة إصلاحيّة دامت قرونا وأخفقت، حتّى " *وجد الإسلام نفسه في الدرك الأسفل من التدرّج في الانحطاط*[15]." يرى فيها الحلّ الجذري والنهائي، الأمثل والأكمل، لوضع الإسلام اليوم. هذا الحلّ يُلخّص في كلمتين: إسلام بلا إسلام. إسلام، إن لم يكن نُفاتي (athée)، فهو يُرضي النفاتي. لا أدري هل عياض ابن عاشور نُفاتي. إن لم يكن نُفاتي، فهو على أحسن تقدير إلاهي (déiste). إلاهه أخرس، معزول ومعتزل في سمائه، لا يُعبَد، ولا يُحاسِب، ولا يُدخل لا في الجنّة ولا في النار، ولا يُخرج منهما، ولا وجود لهما.

" *يجب، بفضل نَسَق تربوي مناسب، أن نُشطّب، في اعتقاداتنا، على مَرَضَنيّات النَقسانيّة : عذاب القبر، الجماليّة التعذيبيّة لجهنّمنا، مُتَع جنّتنا، وبعض الفظائع الأخرى من نفس القبيل*[16]."

إسلام عياض ابن عاشور لا يزيد عن "*أخلاقيّة عالميّة*" كما يقول، مُلَخّصها في حقوق الإنسان. وهكذا الإصلاح يبلغ غايته : التخلّص بصفة نهائيّة وباتّة من الإسلام جملة وتفصيل، كدين الحقّ والحقيقة، وكبلاغ وبيان إلى الناس كافّة وجميعا بنصّ القرآن.

---

[15] *الفاتحة الثانيّة*، ص. 7 .

[16] نفس المصدر، ص. 23 .

يستعرض عياض ابن عاشور عددا من المصلحين، يُدخل فيهم مَن هم على مذهبه ويذكرهم بكلّ خير (محمّد أركون، مالك شبال، عبد المجيد الشرفي)، وينتهي إلى جمال البنّا، ثمّ يكتب : "*أمر محمّد الطالبي أخطر بكثير*[17]." ويتحفني بسهم الأسد. لا فائدة في استعراض ما كتب. خلاصة قوله يُعيبني بأنّني مسلم، بأنّ دفاعي عن حريّة الضمير قناع، أنّي أرسل بالمنسلخ عن الإسلام إلى دواوين التفتيش والمحارق، وأنّ خطابي كلّه شتم وحقد، ويتعاطف مع المسيحيّة تعاطف السيّدة جليلة. فلِمَ لا ينقلب إليها، فيريح نفسه منّا ويريحنا منه؟

[17] نفس المصدر، ص. 141 وما بعدها

المنافقون

بورقيبة وميثاق نداء تونس مثلا

استقالتي من نداء تونس.

انتقلت من الخوف من إسلام النهضة، إلى الخوف على الإسلام، عندما اكتشفت وجه نداء تونس الحقيقي. لم أشارك في أيّ حزب قطّ، بما في ذلك حزب بورقيبة شاتم الرسول وشاتم كتاب الله[18]. دخلت في نداء تونس في ظروف أملت عليّ الدخول فيه. وخرجت منه عندما تغيّرت الظروف، وأملت عليّ كذلك الخروج منه. في كلّ الحالات ديني المُهيكل لِفكري هو الحريّة، لأنّ الله أراد الإنسان حُرّا. وكلّ حزب له دينه ينضبط به ويلتزم. فإذا ما خالف مُخالف الانضباط والالتزام كَفَرَ. إذن فإمّا الرفت وإمّا الاستقالة، فاستقلت، واستقالتي لا تضرّه لِأنّ وزني فيه لا يبلغ وزن ريشة، ولم يكن لي فيه نشاط. ولست الوحيد الّذي استقال منه عندما انكشفت خفاياه وحقيقته.

دخلت في حركة نداء تونس (3 – 10 – 2012) لأقاوم حركة النهضة، وكانت وما زالت تحتكر الخطاب الديني، وكان خطابها، خلافا لما أصبح عليه اليوم وقد تخلّت عن صُقورها، وقد تكون وضعتهم في الاحتياطي، مُرعِبا جدّا : كان دُعاتها يصولون ويجولون في كلّ مكان بحضور الآلاف من المُصغين المُؤيّدين. كانوا يُطالبون بتطبيق الشريعة، حتّى بختان النساء، لتجميل فروجهنّ كما يقولون، وهو ما لمْ نسمع به قطّ مِن قَبْلُ. كانوا يكفّرون وكنت أوّل مَن كفّروا كذبا عليّ، ودعوا إلى قتلي ولم يستنكر أيّ مستنكر، لا منهم ولا من غيرهم، حتّى من زملائي. وهم الّذين ملؤوا اليوم جبالنا بالإرهابيّين. فأزعجني خِطابهم والفراغ الّذي يقابله. غفر الله للنّهضة، فهي من أمّتي وإن كفّرتني وطردتني من الأمّة ! فهي الّتي، بحمق صقورها، وغباوتهم الّتي وسعت السماوات والأرض حُمْقا وغباء، جرّت لنا كلّ البلايا الّتي نعيش فيها اليوم، وعَيَّـفَتْ (dégoûter) جموعا غفيرة من المسلمين من الإسلام، ورمت بهم في أحضان دُعاة الأنوار المتحرّرين من الإسلام جملة وتفصيلا، لبناء الحداثة على أنقاضه، كما تمّ ذلك بالنسبة للمسيحيّة في الغرب المتقدّم، إذ لا

---

[18] Je renvoie à mon livre *Goulag et Démocratie* , Tunis, 2011, chap. «Un despotisme désislamisant : Bourguiba. », p. 115- 126.

حداثة ولا تقدّم من منظورهم بدون سلوك نفس السلوك. هذا السلوك يسلكه الذِهْنِيون (les intellectuels) التونسيّون المُستنيرون بنور عهد الأنوار. فهم يُمَهْزِئون (ridiculisent) الإسلام ليجعلوا منه مَسْخرة يُسخر منها، وهذا أقوى سلاح يحاربونه به. وكانت النهضة توفّره لهم بغزارة وزيادة، على قدر غزارة حمقها وغباوتها الّتي لا تنتهي. في هذه الظروف دخلت في حزب نداء تونس.

دخلت في نداء تونس بحثا عن البديل. بحثا عن حزب إسلاميّ يملأ الفراغ ويتبنّى خطابا دينيا حَدَثيّا عقلانيا تَـقدُّميا، يُجابه به : من ناحيّة خطاب النهضة، ومن ناحيّة أخرى، الركوب على الأنوار، لِطلس (effacer) الإسلام من البلاد بطلاّستها، كما تمّ ذلك في الغرب، وكما كان يسعى إليه بورقيبة. كنت بين المِطْرقة والسندان : كنت أبحث عن البديل من النهضة ومن الأنوار، وثانيهما، بالنسبة إليّ كمسلم، أسـوأ.

فباغتني نداء تونس، فوجدتني هربت من القطرة لِأقع تحت الميزاب. في هذه الحال، إذا ما أكْرِهْتُ على الاختيار بينهما، فإنّي اختار القطرة. إنّي مسلم قبل كلّ شيء، وذلك حقّي عملا بحقوق الإنسان، فلا أعين على طلس الإسلام من بلدي، لا أعين على جرّه إلى الكفر سالكا سبيل غرب الأنوار لأبلغ ببلدي إلى نفس الغاية. كافر مَنْ أعان على الكفر.

"*لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر، يوادّون من حادّ الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم، أو أبناءهم، أو إخوانهم، أو عشيرتهم*" (المجادلة، 58 : 22).

الكافر له الحقّ في أن يكون كافرا حرّا له كلّ حقوق المواطنة، بشرط أن يكون صريحا يفخر بكفره علانيّة، لا يخادع ولا ينافق، والله أعطاه هذا الحقّ، وأنا من حُماة هذا الحقّ، وأرى الفصل بين الدين والدولة، لتضمن الدولة هذا الحقّ لكلّ المواطنين على السواء. بورقيبة لم يكن يفصل بين الدين والدولة فصل الحياد الذي يترك لكلّ المواطنين حريّة اختيار دينهم – كما فعل الرسول بالمدينة حين وضع لها دستورها المعروف بالصحيفة – إنّما كان يريد أن يَطلسَ الإسلام، لِيؤسّس الدولة الّتي لها دينٌ قهريٌّ واحد، دين شتم الرسول وشتم كتاب الله، دين ينفي الإله وكلّ الأديان، ويفرض على كلّ المواطنين دين الأنوار الّذي أخذه عن فلاسفة عهد الأنوار. كنت أبحث عن حزب مسلم، يوفّر البديلَ للمسلم الحيران، يوفّر له خطابا دينيا عقلانيا معتدلا يضمن كلّ الحرّيّات للجميع ذا مِصْداقيّة، يبني الحداثة ويضمن التقدّم، مع الإسلام لا ضدّه.

فطلبت من السيّد الباجي قايد السبسي موعدا. وبعد أيّام اقتبلني مع السيّدة هاديّة السنوسي الطالبي الناشطة في حركة نداء تونس. فوصفت له الوضع كما كنت أراه، وفي الختام سألته هل حزبه مستعدّ للتفكير في خطاب دينيّ بديل. وأثناء ذلك دخل السيّد طيّب البكّوش، الّذي اليوم نجمه في أفول. فقال له : القضيّة بين يديك. ومرّت الأيّام ولم أسمع

خبرا. حتّى قرأت الأسبوعيّة "حقائق" (Réalités, 1499, 18-24 sept 2014) فقرّرْتُ الاستقالة. الظروف تغيّرت : النهضة أصبحت لا تخيفني بقدر ما يخيفني نداء تونس. نداء تونس اختار الأنوار البورقيبيّة .

الباجي قايد السبسي بورقيبة 2.

لا جدال في أنّ بورقيبة كان مناضلا عظيما، جديرا بأن تفخر به تونس، له انجازات سياسيّة واجتماعيّة لا تُنكر، منها على الخصوص تحرير المرأة وتعميم التعليم، لا ثورة الخبز، ولا التعاضديّات، ولا حرب بنزرت. لم يملك فِلسا، وهذا له، لكنّه بدّر أموال الدولة في بناء القصور، ولا حاجة لها في بلاد تعرف الجوع، ومنها قصر صقانص على الخصوص. تونس أعطته حقّه وزيادة، رفعته على الأعناق وسبّحت بحمده وسجدت له. لم يكن ماندلا (Mandela)، ولا نعرف رئيس دولة نال من التقديس ما ناله بورقيبة.

لكن لا جدال أيضا في أنّه كان ديكتاتورا كُلّيانيا (totalitaire) على النمط البولشيفي (bolchevik) : الحزب الواحد ؛ والديوان السياسي (politburo) ؛ واللجنة المركزيّة ؛ ولجان التنسيق؛ والشُعَبّ. كلّ هذه المنظّمات المكوّنة لِنومَنكلاتورَته (nomenklatura) بكلّ امتيازاتها، لقد ذاقت منها بلادنا الأمرّين. وهذا لم يمنعه من أن يكون محافظا، سَامَ اليساريّين سوء العذاب. وحدّث عمّا طال الإسلام والمسلمين في عهده، لا الإسلاميّين الإرهابيّين فقط، ولا حرج. كان ستالين (Staline) تونس، على قدر حجم تونس طبعا.

كنت إذن نائما وديعا هادئ البال، ثقتي في نداء تونس كاملة، حسبته دِرْعنا الحصين ضدّ حزب النهضة، يَقينًا من حماقات السلفيّة والإرهاب. كنت كذلك، حتّى فوجئتُ باكتشاف أنّه حزب أنواري يُواصل سياسة بورقيبة، شاتم الرسول وشاتم كتاب الله، سيّد الأسياد، الّذي تخرّج الباجي قايد السبسي من مدرسته بكلّ أقسامها الداخليّة والخارجيّة، وخدم سياسته اللائسلاميّة وأسهم فيها. وكان سيّد الأسياد، بعد إجلاء الاستعمار الفرنسي في مرحلة أولى، وهو صاحب سياسة المراحل، يريد، في مرحلة ثانيّة، أن يتوّج نضاله البطولي بإجلاء استعمار ثان : استعمار الإسلام والمستعمرين العرب الّذين أدخلوه إلى بلاد يوغرطة (Jugurtha, 118 - 107 av. J.C)، الملك النوميدي، الذي ثار على روما، ولم ينجح في ثورته عليها فمات في سجنها. وكان بورقيبة معجبا به، ويعتبر نفسه يوغرطة 2، نجح حيث خاب الأوّل، من حيث أجلى الاستعمار الفرنسي، ولم يُجْلِ يوغرطة الاستعمار الروماني الّذي تثقف بثقافته، كما تثقف بورقيبة بالثقافة الفرنسيّة حتّى كاد أن يكون فرنسيّا : من الغريب أن يكون بورقيبة الوحيد الّذي تزوّج فرنسيّة، وأعطى لإبنه اسما إنجيليا : جان (Jean). وفي النهاية خاب أيضا بورقيبة، بالرغم من كلّ جهوده، إلى حدّ الإكراه بالعنف

(إفطار رمضان)، و بالرغم عن اجتهاده النفاقي، خاب في إجلاء الاستعمار العربي الإسلامي. وكما مات يوغرطة في سجن روما، مات هو في سجن أشنع، مات في سجن بن علي. الشبه غريب !

ومن المُؤْسِف أنْ يكون البطل العظيم أهان نفسه في آخر حياته : مَن لم يره شيخا حقيرا ذليلا، يصعد مرتعشا ليسجد لِسَجّانه، دُرَج قصره الّذي بناه وطرَده منه. أهكذا يتصرّف الأبطال ! طُرد منه لأنّه أهان وأخصى الرجال، فوقع بين يدي امرأة، زَوّدته بِمَن زَوّدته من الجواري، فزادته وَهَنا على وَهَن الشيخوخة. أخصى الرجال، فلم يجد حوله يوم خُلِعَ سوى الخصيان، الّذين كانوا، لحظات من قَبْلُ، يصرخون مِلْءَ حناجرهم "بالروح، بالدم، نفديك، يا بورقيبة !" هؤلاء أصبحوا اليوم رجالا يترشّحون إلى الانتخابات ! العزوف عن التصويت له ما يفسّره :

*لا تقل الرقص عيب * فارقص اليوم تفوز*

*إنّنا في كرنفال * والزمان كراكوز*

الخليفة ووليّ العهد ؟.

الباجي قايد السبسي أخذ من بورقيبة مشعل الأنوار وإجلاء الإسلام من حيث تركه، لِيواصل نضاله الّذي أسهم فيه معه وإلى جانبه. وعندما أصبح نداء تونس حزبا قويّا، وعندما أصبح هو، الباجي قايد السبسي، "*تجسّدا حيّا لِبورقيبة في طريق التقديس*"، حسب عبارة حمّادي رديسي[19]، دعا فريقا من ألمع وجوه الأنوار، ليصوغ معهم وبرعايته، الميثاق التاريخي والفلسفي لنداء تونس، ليضمن لنضاله، نضال بورقيبة 2، أوفر حضوض النجاح، ولنا إلى ذلك عود. لكنّ شتّان بين الرجلين، مهما كان إعجاب حمّادي رديسي به. مهما انهار بورقيبة في آخر حياته، فإنّ الباجي قايد السبسي يذكّرني بقولة فقيه مصري رأى مَن يشبّه نفسه بمالك فقال له : "مثلك كمن بال بين بحرين، فرغا بوله، فقال : هذا بحر ثالث."

ثمّ فُوجِئتُ بأوّل نشرة لرُؤساء القوائم الّذين رشّحهم نداء تونس للانتخابات. على رأس قائمة تونس 1 وجدت حافظ قايد السبسي، وما كنت أتصوّر حتّى وجوده. لقد بزغ نجمه

---

[19] *son incarnation vivante en voie de sanctification*, dans Réalités, n. 1499 , 18 – 24 sept. 2014 , p. 12.

فجأة، ثمّ أفل فجأة، بنفس السرعة والإبهام. هل كان يريد أن يجعل منه وليّ العهد، فلم تَتِمّ له البيعة، بيعة قيادي نداء تونس، فأمسك؟ فَعَجِبْتُ واستفهمت. ففهمت أنّه رَجُل أعمال ثريّ أثرى، فيما أثرى منه، من التجارة في الخمر ومُشتقاتها. وكيف لا؟ وقد أصبحت بلادنا تأتي، في ترتيب البلاد المستهلكة للكحول، في الرتبة الخامسة بعد روسيا والبرتغال! وهذا مِقياس الحداثة والتقدّم بمفهوم بورقيبة وسياسة الأنوار. في أقلّ من نصف قرن، بلغت بلادي، بفضل سياسة الأنوار البورقيبيّة، ذّروة الحداثة والتقدّم، وأصبحت، بين الدول المتقدّمة المستهلكة للكحول، تحتلّ رُتبة مرموقة.

المسلم غير المستنير بالأنوار البورقيبيّة له تفكير آخر. يقول : كان الله، برحمته وواسع حكمته، قد جنّبنا شرّ الخمر، أمّ الخبائث، في قوله "*فاجتنبوه*" (المائدة، 5 : 90). جنّبنا هذا الرِجْس "*من عمل الشيطان*" الّذي ملأ المستشفَيات بالأمراض الكحوليّة، والطرقات بالأموات. كان بيع الخمر للمسلمين مَمْنوعا أيّام الاستعمار. فعندما أنعم بورقيبة على تونس بالاستقلال، أنعم عليها أيضا بنعيم الخمر، فَبَوّأنا في احتسائها "مقاما محمودا" بين الدول. وهذه ميزتنا الوحيدة. خِيرْ من بْلاش في التعاسة!

وأعطت، سياسة الأنوار الحكيمة، الرخص في التجارة في الخمر لمن ترضى عليه، ولا أدري مَن رَضِيَ على قايد السبسي الابن وأرضاه. ولا أدري هل سيُرضيه نداء تونس أكثر فأكثر، فيُسْنِد إليه مثلا وظيفة الترخيص في بيعها، إذا ما انتصرت الأنوار.

خُلاصة القول باختصار : بالأنوار أجلى بورقيبة الاستعمار، وبالأنوار شرع في إجلاء الإسلام. بدأ في هذا الإجلاء، تَتْويجا لعمله، هو "سيّد الأسياد" الّذي لا يُعصى له أمر. لم يتمّه لِأسباب يعلمها "كِبار الحومة"، الّذين بقيت منهم اليوم بقيّة تتذكّر. إتمام ما بدأ فيه "سيّد الأسياد" هو اليوم أوكد مهمّة مَن ساعدوه وورثوا إرثه. من أوّل الأمر، هاؤلاء حاولوا أن يقفزوا على انتفاضة غير مُنتظرة ولا مُنظّرة ولا مُؤطّرة، أصبحت بغتة، في غير تونس، ربيعا بلا زهورأنبت الشوك، وفي تونس ثورة، يريد نداء تونس اليوم أن يجعل منها انتصارا للبورقيبيّة وللأنوار. لا ننسى أنّ أوّل دولة بعد الثورة كانت دستوريّة. عندما طرد الشعب محمّد الغنّوشي من القصبة، فزع فؤاد المبزع إلى دستوريّ ثان نظيف : الباجي قايد السبسي، وكان إذّاك نسيا منسيا، لم يقاوم الديكتاتوريّة ولو فتيلا. واليوم أخذ مِشْعل الأنوار من حيث تركه بورقيبة. هل الشعب يتركه يذهب به إلى غايته البورقيبيّة؟ كلّ مسلم يجب أن يبذل وسعه ليحول دون ذلك. فاليختر أيّ حزب شاء، والاختيار واسع عريض، ما سوى نداء تونس، حزب إجلاء الإسلام من تونس بنور الأنوار، بنور الذهنيّين التونسيّين المستنيرين بها، الّذين صاغوا له ميثاقه التاريخي والفلسفي. ننقل عن السيّدة رجاء بن سلامة :

" كنّا بعضا من الذهنيّين حرّروا ميثاق الأسُس التاريخيّة والفلسفيّة لهذا الحزب الذي كنّا عليه نُراهن لإعادة توازن الحياة السياسيّة في تونس"

خطابي ديني فقط.

كمفكّر مسلم قرآني أقول للمسلمين : انتصار نداء تونس معناه متابعة سياسة إجلاء الإسلام من تونس بأنوار الذهنيّين الّذين حرّروا له ميثاقه. شعار "كلّنا مسلمون"، عندما يرفعه الذّهنِيّون (les intellectuels) التونسيّون المُتفَلسفون بفلسفة الأنوار، شعارٌ سُفسُطائي نفاقي، ضبابيّ قصدا، يَقصدون به خداع وتغرير المسلم العادي البسيط، كي يُوهموه أنّ اعتقادهم أنّ القرآن مكذوْب ومحمّد دَجّال، وهو مقامهم المشترك، لا يخرجهم من الإسلام، من دون أن يفصحوا من أيّ إسلام يقْصِدون. الإسلام عندهم إسلامان : دين وهو ليس بإسلامهم ؛ وهُوّيّة (identité) بلا دين، وهو إسلامهم. فهم يلعبون على الحبل، حبل النفاق، والمسلم العادي لا يفرّق بين المفهومين، فيُمَوِّهون عليه. وهنا تكمن المكيدة، ويكمن خِداعهم وتضليلهم المقصود. ومن واجبي، كمفكّر مسلم قرآني، أن أفضح نفاقهم، في هذا الكتاب الّذي أردت أن أجعل منه مَرْجعا للمسلم القرآني.

فهم قد قطعوا مع الإسلام كدين ؛ وحافظوا عليه كثقافة وكهويّة. المكيدة الّتي بها يُلبّسون على المسلم العادي البسيط الّذي لا ينتبه إليها، باستثناء بعض الصرحاء منهم، تكمن في أنّهم بهذا لا يصرّحون، ولو صرّحوا بهذا لانتهت القضيّة. فلو قال الذّهنِيّون التونسيّون المُتفَلسفون بفلسفة الأنوار على رؤوس الأشهاد : "لسنا مسلمين" لانتهى الأمر. لكنّهم يلتحفون، في كلّ خطاباتهم، بِلِحاف كثيث من الضبابيّة، وبذلك يوهمون المسلم الغافل أنّهم مسلمون، يلبِّسون عليه تلبيسا خفيّا. المسلم : لا يُحرّرُ له ميثاقه فلاسفة الأنوار من الّذين لا يصرّحون نِفاقا بأنهم قطعوا مع إسلام الصلاة والصوم والعبادات. فهم يضمرون رُوَيْدا رويدا، لَمْسَة بعد لمسة خفيّة، إجلاء الإسلام، بحيث لا يستيقظ المسلم يوما إلاّ وقد أُجْلِيَ الإسلام من أرض أجداده. في كلّ ذلك يتستّرون بستار شعار "كلّنا مسلمون." في أمثالهم يقول الله محذّرا نبيّه من مكرهم :

" إذا جاءك المُنافقون، قالوا : "نشهد أنّك لرسول الله." والله يعلم إنّك لرسوله. والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون. اتّخذوا أيْمانَهم جُنّة، فصَدّوا عن سبيل الله. إنّهم ساء ما كانوا يعملون. ذلك بأنّهم آمنوا، ثمّ كفروا. فَطبِعَ على قلوبهم، فهم لا يفقهون. وإذا رأيتهم، تُعجِبُك أجْسامهم. وإنْ يقولوا، تسمع لِقولهم، كأنّهم خُشُبٌ مُسَنّدة، يحسبون كلّ صَيْحة عليهم. هم العدُوُّ! فاحذَرْهم. قاتَلهم الله، أنّى يُؤْفكون؟" (المنافقون، 63 : 1 – 4).

الإسلام القرآني حريّة.

فاليَطْمَـئِـن المنافقون! في زمان نبيّنا وقُدْوَتنا الذي يسخرون منه، وكان يَسْخَر منه زعيمهم بورقيبة الذي أسهموا في حكمه، ويريدون أن يعودوا بنا اليوم إليه، لم يكن ما يجعل المنافقين يخافون من أن تكون "*كلّ صَيْحة عليهم.*" ولن يكون ذلك في بلادنا، ولا في أيّ بلد دينه الإسلام القرآني الّذي ندعو إليه. لقد عارَضْنا السلفيّة المنحرفة عن كتاب الله، ولن نزال نعارضها ونكافحها كفاحا سِلميّا "*حتّى تَـفِيءَ إلى أمر الله*" (الحجرات، 49 : 9)، وإلى كتابه. الإسلام القرآني لم يكن دين المَحارق، ولم يقتل نبيّنا المرتدّين، وليس من ذلك شيء في كتاب الله، إنّما ذلك من صنع شريعة بشريّة إرهابيّة دعونا وما زلنا ندعو إلى إلغائها. فاليَطْمَـئِـن إذن مَن يشتم الرسول ويشتم كتاب الله، واليُدافع عن رأيه بِحريّة، ويفخر وصراحة، ولا حاجة له في النفاق. إنّ عدوّنا الوحيد هو النفاق فقط، ولن ندّخر جهدا في الكشف عنه حيث ما وجدناه، وهذا ما نحن بصدده. ذلك أنّه، إن كان من واجب المؤمن أن لا يتجَسّسَ، وأن يتجنّب "*كثيرا من الظنّ، إنّ بعض الظنّ إثم*" (الحجرات، 49 : 12). فإنّه من واجبه أيضا أن يحمي الإسلام من مكر الماكرين وتلبيس الملبّسين من ذِهْنِيِّ الأنوار البورقبيّين الّذين يشتمون الرسول وكتاب الله، وفي أمثالهم يقول الله :

" *وإذا قيل لهم : آمِنوا كما آمَنَ الناس. -- قالوا : أنُؤْمِنوا كما آمن السفهاء؟ -- ألآ، إنّهم هم السفهاء ! ولكن لا يعلمون. وإذا لقوا الّذين آمنوا، قالوا : آمنّا ! – وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم، قالوا : إنّا معكم. إنّما نحن مستهزؤون !*" (البقرة، 2 : 13-14).

إنّه من واجبنا أن نكشف القناع عن *المستهزئين* بديننا في الخفاء، الّذين "*إذا خَلَوْا إلى شياطينهم، قالوا : إنّا معكم. إنّما نحن مستهزؤون !*" وهم كُثُر في زماننا، وسلاحهم، الاستهزاء، توفّره لهم بسخاء السلفيّة الّتي وسعت السماوات والأرض حُمْقا وغباء. الاستهزاء، إلى جانب النفاق، أقوى أسلحتهم الّتي بها يريدون إجلاء الإسلام من بلادنا بدهاء : بالاستهزاء ينخرون ؛ وبالنفاق يتسترّون ويُخَدّرون. المسلم ليس مُغَفّلا.

طاقم نداء تونس من أجل إجلاء الإسلام بالأنوار.

فتحي بن سلامة، مُحَلّل نفسانيّ ؛ عبد المجيد لرقش، مؤرّخ ؛ رجاء بن سلامة، كاتبة، مُحَلّلة نفسانيّة ؛ رضاء شنّوفي، فيلسوف ؛ حمّادي رديسي، مؤرّخ ؛ دلندة لرقش، مؤرّخة ؛ عبد الواحد براهم، كاتب، رجل آداب ؛ مليكة ولباني، فيلسوفة ؛ محمّد هادي طرابلسي، عميد

كليّة الآداب بمنّوبة سابقا ؛ حاتم مراد، علوم سياسيّة ؛ منير خليفة، أستاذ آداب أنجليزيّة ؛ عبد الكريم علاّقي، مؤرّخ ؛ رضاء بن رجب، مؤرّخ ؛ فاضل جزيري، فنّان.

هذا الطاقم قد اختار الباجي قايد السبسي أعضاءه بكبير عناية، وقد أجاد الاختيار. فهم كلّهم من صفوة الذهنيّين (intellectuels) التونسيّين، ولا أقول المثقّفين لِكبيرالفارق الدَلالِي بين اللفظين. لهم كلّهم، بجدارة، سُمْعَة عالية في اختصاصاتهم، ومنهم مَن هو ذو صِيت عالمي، يحقّ لتونس أن تفخر بهم. فأنا أكِنّ لجميعهم فائق التقدير. كلّهم، كما يقول حمّادي رديسي، من الذين أسهموا في صنع المعرفة، بحيث لا يُسْتَغْنى عن مؤلّفاتهم، وكثيرا ما استفدت منها. لا خلاف لي معهم في ميدان المعرفة الصِرفة من حيث هي معرفة.

لكن لا معرفة بدون نقد واختلاف في الاستقراء والرأي. في هذا المستوى، لهم آراؤهم وكلّها، فيما أعلم، يساريّة مستوحاة من أنوار عهد الأنوار، الذي أحدث ثورة معرفيّة عالميّة مُتعدّدة الاتجاهات سَلْبا وإيجابا، لم يستفد منها، لسوء حظّنا، الإسلام الذي طغت عليه السلفيّة المُحافظة على رماد الماضي، لا على لهيبه، إلى أقصى حدود الحمق والغباوة.

هؤلاء إذن لهم دينهم، "*ولِيَ دين*" (الكافرون، 109، 6). وكلانا كافران : فهم يكفرون بما أدين به ؛ وأنا أكفر بما يدينون به، وبطاغوت.بورقيبة على الخصوص الذي يُجِلّه نداء تونس، الحزب الذي صاغوا له ميثاقه التاريخي والفلسفي. دين بورقيبة، إن لم يكن النُفاتية (athéisme)، فهو إمّا الاهوتيّة (déisme)، أو الأدريانيّة (agnosticisme). وقد يكون دينه الذَبْذبة التي لا تثبت على حال. الذي لا شكّ فيه هو أنّه لم يكن مسلما بأيّ وجه من الوجوه. لا أرحّم عليه، لأنّه كان يشتم الرسول ويشتم القرآن، وكانت غايته إجلاء ظلاميّة الإسلام من العقول، بفضل إنارتها بنور فلسفة الأنوار. فكيف أرَحّم على مَن أهانني في ديني، واجتهد اجتهاد النفاق لِيجلِيه من أرضي وبلادي؟ إنّي لست مازوشيّا (masochiste). ومهما يكن الأمر فإنّه كان لا يعبأ بالرحمة، ولا ينتظرها، ويزدري الرحمة والرحيم. ثمّ له حسابات مع من عذّب وقتل، ومع مَن دفع بهم إلى القتل في معركة بنزرت المخسورة مسبّقا، غرورا بنفسه، وقد سقط فيها أكثر من 7000 شهيد -- رحمهم الله جميعا ! — لهم أبناء وأحفاد.

كان يزدري الإسلام، ويريد أن يغسل منه أذهان المسلمين بالازدراء والسخريّة. في المُلتقى[20] الدولي الذي انعقد بتونس (18 – 19 مارس 1974) حول "*الهويّة الثقافيّة والضمير القومي*"، القى بورقيبة خطابا منهمرا كسيل العرم، لن أنساه، ولا يزال منقوشا في ذاكرة من سمعوه، ولخّصتْه مُهَذّبا جريدة الصباح (20 – 21 مارس، 1974). فيه أذلّنا،

[20] *Cahiers du CERES* , série sociologie 2, Tunis 1974 , p. 7- 30.

وأهان نبيّنا وكلام الله. وخرس فضائل علمائنا بلا فضيلة ولا فضل، واسمحوا لي بالعبارة، بال علينا : نبيّنا، محمّد، راعي إبل جاهل بلا ديبلومات؛ وهو، بورقيبة، له ديبلومات من أعظم الجامعات؛ وله مادّة شخمة ذكيّة بها أتى بالمعجزات؛ قرآن محمّد لا يزيد عن كمْشَة بذيئة من الأساطير، جمعها إثر تجواله بين البدو، وأترك البقيّة إلى ذاكرة مَن سمعوه، وما زالت منهم بقيّة تتذكّر. وفي النهاية أمره إلى المشيئة.

الأستاذ حمّادي رديسي " *ذِهْنِيّ مُلْتَزم*[21]"، ملتزم بتنبيه المسلمين إلى أنّ نبوة نبيّهم تدجيل يجب أن تخضع على الأقلّ إلى الشكّ فيها. أمّا قرآنهم فهو مُفْتَرَى مكذوب. من واجبهم إذن أن يقوموا بنقده وبيان كذبه، كما فعل علماء الغرب منذ ثلاثة قرون. يقول هذا بصراحة تُثمّنها ومن أجلها نُقدّره ونُجلّه. كلّ تحاليله تنطلق ضِمْنيًا، أو تصريحا، من هذا المنطلق والمبدأ الأساسي. ويأسف حمّادي رديسي أنّ الإسلام لم يعرف أمثال اليهودي سبينوزا (Spinoza)، والمسيحي هوبس (Hobbes) في نقدهما للكتاب المُقدّس. ويُوَجِّه للمسلمين هذا التحدّي :

"مَنْ بين المسلمين يستطيع أن يَنْفِيَ حقيقة المعجزة القرآنيّة، أن يتوهّم طبيعتها جُزئيا مفترات، أو أيضا أن يشكّ في نبوّة محمّد ! باختصار أن يفعل ما فعله سبينوزا (Spinoza) لليهود، هوبس (Hobbes) للمسيحيّين، منذ ثلاثة قرون خلت 22 !"

حمّادي رديسي استطاع ذلك لنفسه، ونبّه المسلمين، لكنّه لم يستطع أن يكون لا سبينوزا ولا هوبس الإسلام. لم يكتب شيئا في هذا الصدد. فما منعه من ذلك؟ غير أنّه إن لم يكتب، فلا محلّ لِأسفه. فهناك مَن كتب وكفاه المؤونة وحلّ محلّ سبينوزا في الإسلام، وهو عفيف الأخضر، الّذي جلب اهتمام المستشرق البريطاني ستيفن أولف الذي أشاد به. وللتعريف به في تونس وفي كامل العالم الإسلامي، أسّس صديقه الدكتور محمّد المثلوثي جمعيّة عفيف الأخضر للفكر التنويري، التي بدأت أوّل نشاطها بتنظيم ندوة حضرها كثير من الأنواريّين التونسيّين منهم على الخصوص الأستاذ عبد المجيد الشرفي المعروف بنشاطه في نفس الاتّجاه. والغريب هو أنّ السيّدة رجاء بن سلامة حضرت الندوة، وغاب عنها حمّادي رديسي، وكلاهما من نجوم نداء تونس الّذين حرّروا لها ميثاقها.

أمّا نحن، فإنّنا لا نحتاج إلى ذلك. كفانا منه معاصروا الرسول. لقد نعته معاصروه بالجنون، وكرّروا ذلك على طول الفترة المكيّة، أي على مدى ما يقرب من 12 سنة، ولم

---

[21] *Réalités*, op. cit. p. 12

[22]« *Qui parmi les musulmans peut nier la vérité du Miracle coranique , en soupçonner le caractère partiellement apocryphe , ou encore douter de la prophétie de Muhammad ; bref faire ce que Spinoza a fait pour les Juifs , Hobbes pour les Chrétiens , il y a déjà trois siècles !* » dans *Monothéismes et Modernités*, Actes du Colloque International de Carthage, éd. Oroc et Fondation Naumann , Tunis, 2009, p. 233.

يخف كتاب الله أقوالهم : (الأعراف، 7 : 184 ؛ الحِجر، 15 : 6 ؛ المؤمنون، 23 : 25 ، 70 ؛ الشعراء، 26 : 27 ؛ الصافّات، 37 : 36 ؛ الدخان، 44 : 14 ؛ الصفّ، 52 : 29 ؛ القلم، 68 : 2 ، 51 ؛ التكوير، 81 : 22). ولم ينتظروا سبينوزا وهوبس وبورقيبة وحمّادي رديسي، لينعتوا القرآن بأنّه مكذوب، وأنّه مفترى، وكذلك لم يخف كتاب الله طعونهم : (يونس، 10 : 37 ؛ يوسف 12 : 111 ؛ النحل، 16 : 101 ؛ القصص، 28 : 36 ؛ سبأ، 34 : 43). وليس مِمّا يقابل هذا، ولو حرفا واحدا في كتب اليهود والمسيحيّين. لم يخف الله شيئا من الطعون في رسوله وفي كتابه لِأنّه لا خشية عليهما منها، بل جادل المعاصرين وحاورهم بالّتي هي أحسن. فمن اقتنع منهم أسلم، ومَن لم يقتنع، يقول الله لرسوله أن يقول لهم : "*لكم دينكم. ولِيَ دين*" (الكافرون، 109 : 6)، لأنه "*لا إكراه في الدين.*" وبذلك نقول.

طاقم نداء تونس يكوّنون مجموعة متضامنة، مكّنتهم بعد نقاش أحيانا حادّ، يقول حمّادي رديسي احْتيج فيه إلى تحكيم رئيس الحزب الّذي انتقاهم وجمعهم، من تحرير نصّ مشتَرَك : ميثاق الحزب. من بينهم، رَأْيُ حمّادي رديسي في النبيّ وفي القرآن واضح صريح. فما هو رأي بقيّتهم؟ لم يصرّحوا. لكنّ الّذين على رأي حمّادي رديسي من بين مَن لهم نفس الاتّجاه، يُشاطرونه في الرأي، وليس منهم مَن "*إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة* [يسعى] *إلى ذكر الله*" (الجمعة، 62 : 9)، ما لم يكن عائق. غير أنّ هناك مَن يصارح، وهناك مَن ينافق، والنفاق ليس فضيلة. والله أمرنا أن نحذر المنافقين. من واجب المسلم أن يكون يَقظا.

النفاق قديما وحديثا سواء. المنافق له وجهان، ومن المستحيل أن تقنعه أنّه ينافق. سمعت (قناة الوطنيّة 1) الباجي قايد السبسي يقول لنا إنّه له مصحف في سيّارته، وإنّه يقرأ منه كلّ صباح ما تيسّر ويُعجب بجمال لغته. ليس لديّ ما يجعلني أشكّ في هذا. غير أنّ إعلانه هذا من أحسن ما يبدأ به حملته الانتخابيّة. وقد نسمعه مرارا وتكرارا. فلم يباغتني إعلانه، ولعلّنا نُشاهد يوما الباجي قايد السبسي يَؤُمّ صلاة الجمعة ! فمن يجهل أنّ بورقيبة كان أيضا كثيرا ما يستشهد بالقرآن اجتهادا نِفاقيّا؟ لقد سمعته مرارا يستشهد بقوله تعالى : "*إنّ الله لا يُغيّر ما بقوم حتّى يُغيّروا ما بأنفسهم*" (الرعد، 13 : 11). ولقد غيّر فعلا ما بنفسه من دين آبائه وأجداده. غيّر نور الله بنور الأنوار. ولقد كان بارعا في الاجتهاد النفاقي، به أكره التونسيّين مثلا على الإفطار في رمضان، أكره أصحاب المقاهي والمطاعم على فتح محلاّتهم بلا حريف، لوجه الشياطين الذين إذا خلا إليهم قال إنّي من المستهزئين، وابتغاء مَرْضاتهم. لقد أعطى على رؤوس الأشهاد المثل على الإفطار وأكره عليه كلّ من استطاع : الجيش والشرطة وتلاميذ وطلبة المبيتات والمطاعم الجامعيّة، وحدّث عن بورقيبة ولا حرج !

بالنسبة للدّهنيّين المتشبّعين بفلسفة الأنوار، محمّد يقوم مقام هومروس (Homère)، والقرآن يلعب دور الإلياذة (Iliade)، ودور الأوديسيّة (Odyssée). وعن ذلك نشأت حضارة يرفضون القطع معها كثقافة وحضارة، لأنّ القطع معهما، ما لم ينقلبوا إلى دين آخر كما هو شأن البعض، يجعلهم معلّقين في الفراغ، بلا مَرْجَعيّة ثقافيّة تاريخيّة، بما ينشأ عن ذلك من عُقد ومُركّبات وانعكاسات نفسانيّة. وكيف يستطيعون ذلك ولو شاءوا؟ بطاقة ولادتهم عالقة بهم.

إذن إلى هذه الحضارة ينتمون كرها لا طوعا. وعندما يرفعون نفاقا شعار "كلّنا مسلمون" يعنون بذلك أنّهم مسلمون بلا دين وبلا عقيدة وبلا واجبات وبلا صلاة وبلا تقى وبلا عبادات. هذه هي الغاية التي عمل من أجلها وحاول فرضها الديكتاتور بورقيبة المستنير بنور الأنور، بنور أوغست كونت (Auguste Comte, 1798-1857) على الخصوص. وكان معجبا بمعاصره جاك مونو .(Jacques Monod, 1910-1976)، صاحب *الصدفة والاضطرار*، الذي استدعاه إلى قصره إجلالا له ومُشاركة معه في أرائه النفاتيّة التي يستدلّ عليها جاك مونو بأدلّةٍ يراها علميّة بُرهانيّة.

نداء تونس يتأهّب ليُواصل سَعْي بورقيبة المشكور إذا ما كان النصر حليفه في الانتخابات المقبلة. لذلك جنّد أفضل الدّهنِيّين التونسيّين لينيروا له السبيل، ورأيناه يتوسّطهم في الصورة الّتي نشرتها "حقائق."

المسلم القرآني، في تعامله اليوم مع هذه الأوضاع، يجب أن يكون مطلعا على خفايا خطاب الدّهْنِيّين من دُعاة الأنوار الّذين بالأنوار " *يريدون أن يُطفِئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلاّ أن يُتِمّ نوره، ولو كره الكافرون*" (التوبة، 9 : 32 ؛ الصفّ، 61 : 8). المسلم لا يسعه أن يعين الّذين " *يريدون أن يُطفِئوا نور الله*"، على إطفائه، بإعطائهم صوته، ليكون لهم سوطا به يجلدونه بعد الانتصار. في كلّ الحالات، في أوضاعنا الحاليّة، يجب أن تكون مراقبة المسلمين على السلطة يقظة ومستمرّة، إذا ما أرادوا ألاّ يستيقظوا يوما وهم أقليّة مضطهدة، غُرباء في بلاد أجدادهم، كما وقع ذلك في الغرب بمقادير تقلّ وتزيد. وهو طبعا حرّ في اختياراته، وضميره حسيبه، والأحزاب عديدة[23]. أمّا أنا فإنّي أستنير بنور الله، و"*الله نور السماوات والأرض [...] نور على نور، يهدي الله لنوره مَن يشاء*" (النور، 24 : 35)، والحمد لله الّذي هداني لنوره، " *وما توفيقي إلاّ بالله، عليه توّكلت، وإليه أنيب*" (هود، 11 : 88) .

[23] هذا النصّ كُتب أيّام الحملة الانتخابيّة، ويجب أن يوضع في وضعه كي يُفهم على وجهه

الإيمانية عامّة

تقول: الحقيقة موجودة، هي خالق بصير له غاية. يجده كلّ إنسان بفطرته في قلبه.

•

لإيمانيّة في قلب كلّ إنسان بفطرته :

الإيمان واحد سبق النفاتيّة إلى حدّ أنّها كانت مُتصوّرا (concept) مفقودا في الدماغ الإنساني. كلّ إنسان، إلى اليوم، من حيث يشعر أو لا يشعر يجد الإيمان في قلبه، على الأقلّ عن طريق السؤال. وحتّى إذا ما أجاب اليوم بالنفي عن السؤال، ودان بالنّفاتيّة، فهو ينفي افتراضيّة الإيمان الّتي يجدها مُسبّقا مَنْحوتة في قلبه. وهكذا لا يستطيع التحرّر من الإيمان إلاّ بعد ما وجده، كي يصبح من الأحرار المفكّرين، أو من المرتدّين الأحرار ومَن لفّ لفّهم من الانسلاخسلاميّين : لا تحرّر إلاّ من شيء كان موجودا مسبّقا، وهو الإيمان.

ذلك لأنّ الإيمانيّة سبقت وعمّت الجنس الإنساني بأكمله. لقد سبقت النفاتيّة، الّتي لم تُحْدَث إلاّ حديثا، وتأسّست خاصّة في قرن الأنوار. لقد دام الإنسان، من يوم أصبح إنسانا في مجرى التطوّر الطويل، يجهل النفاتيّة، إلى أن بزغت أوائل بوادر التفكير الفلسفي. كلّ علوم الإناسة (anthropologie) متّفقة على هذا وتقيم عليه الدليل بصفة قطعيّة وثابتة. لِمَ ذلك وما تفسيره؟

جواب النفاتيّة وتفسيره

هذا الجواب يرتكز على تفسير الإيمان اعتمادا على غريزة إنسانيّة طبيعيّة : الخوف والحاجة إلى الحماية. الإنسان نشأ صدفة، نشأ ضعيفا من مادّة أزليّة عمياء كُليّا لا تشعر حتّى بوجودها. بمجرّد ما أصبح إنسانا نظر إلى ما حوله، فوجود نفسه مُضيّعا في عالم مخيف مُرهب كله أخطار تهدّده، عالم لا يملك له تفسيرا. وجد هكذا هذا الإنسان المسكين الضعيف نفسَه مُتروكا لنفسه في فضاء مُرْعب، يُرعبه في كلّ لحظة بشتّى أنواع الرعب. فخلق من كلّ رُعْب إلاها مُرعِبا يريد له الشرّ. وكي يتّقِيَ شرّه، ويحمي نفسه منه، اخترع شتّى وسائل التقرّب إليه، لا لِيحمي نفسه منه فقط، بل ليجعل منه حاميا. وهكذا تمّ خلق الأله بكلّ أشكاله، والعبادات بكلّ أشكالها، ومنها الأضاحي البشريّة، من خوف الإنسان المُهْمَل والضعيف في عالم مخيف، حماية لنفسه. كلّ الأديان على السوّاء، قديمها وحديثها،

بسَحَرتها وبكهنوتها، بجنّاتها وبنيرانها، نشأت من خوف الإنسان المسكين المُهلوَس، الضائع والمُضيَّع، بلا حول ولا قوّة، في عالم الهول والأهوال. هذا الإنسان، عندما تحرّر من الخوف، تحرّر في نفس الوقت من الإيمان بوجود إله وهمي لا وجود له إلاّ في هلواسه. هذا تفسير النُفاتيّة للإيمانيّة.

جواب الإيمانية عامّة وتفسيره :

تفسير الإيمانيّة، بكلّ أنواعها، يرتكز على وجود إله خالق بصير حكيم، خلق الخلق كلّه لغاية بدافع المحبّة، وخلق، بذلك الدافع، الإنسان خاصّة. لِمَ الإيمان، في كلّ الحالات، في كلّ تصوّرات دائرة التصوُّر الفكري التنظيري، أو الحسّي التجريبي، يعترض الإنسان في سلوكه مسالك الحياة الوعرة، من حيث هو إنسان ذو رويّة وسؤال، وذو فكر مُفكر؟ لِمَ يجده بفطرته في قلبه اضطرارا لا اختيارا؟

الإمانيّة اليهوديّة

تقول: الإيمان مقصور على بني إسرائيل.
يجده كلّ يهوديّ بفطرته في قلبه ومختوما في جسده عن طريق الختان.

تفسير اليهوديّة لظاهرة الإيمان، الذيْ يجده كلّ يهوديّ في قلبه بفطرته، نجده في الكتاب المقدّس كما بلغنا، في سفر التكوين منه وفيما بعده. تقول اليهوديّة إنّ يَهوه (Yahvé) لَمْ يخلق الخلق كلّه، بدافع محبّة الإنسان عامّة من حيث هو إنسان خُلِق لغاية، لكن من أجلها خاصّة وفقط. اليهود هم "الشعب المُخْتار" (Le Peuple Elu) من نسل إبراهيم عن طريق صارة وإسحاق ويعقوب باستثناء غيره من أولاده. وهكذا يجد كلّ يهوديّ، إرثا عن إبراهيم، بخلاف الوثنيّين وغيرهم عامّة بما في ذلك النفاتيّين، الإيمان بإله واحد مختوما في قلبه، ومُجسّدا في جسده عن طريق الخِتان في الأيّام الثمانية الأولى من ولادته، علامة لا تُمحى على العهد (Alliance) الذي ربط بينه وبين يَهوه، إيلوهيمه (Elohim)، إلهه دون غيره من الشعوب. وذلك بفطرته، وهكذا يبقى اليهوديّ المختون يهوديّا، مهما شكّ، ولو أصبح نُفاتيّا.

يَهوه اصطفى أوّلا إبراهيم من ذريّة آدم كلّها (سفرالتكوين، 11: 27 – 32؛ 12 : 1 – 3). وآمن به إبراهيتم (تكوين، 15: 6). فعقد معه عهدا أبديّا (تكوين 17 : 1 – 26). ثمّ اصطفى من ذرّيته إسحاقَ وابنه يعقوب. ويومها " *قسم الميراث على الأمم. وحين فرّق بني آدم، أقام حدودا للشعوب على عدد أبنائه*[24]*، لأنّ نصيب الربّ هو شعبه، وأبناء يعقوب قُرْعَة و ميراثه*" (التثنيّة، 32 :8). يهوه له أبناء كلّهم بالطبع ألهة (سفر التكوين، 6 : 2)، "*لأنّ الربَّ إلهكم* (*Elohim*) *هو إله الألهة وربّ الأرباب*" (التثنيّة، 10 : 17).

فإذا ما قرأنا هذا النصّ، ألا يحقُّ لنا أن نتساءل : هل اليهوديّة، كما بلغتنا في كتابها المُحرّف بقِيت وفيّة إلى رسالة إبراهيم وموسي؟ أم هل تأثّرت بالوثنيّة المحيطة بها من كلّ جانب، وأصبحت وثنيّة؟ وبهذا نكتفي في تذكرة أردناها أقلّ زاد المسلم المعاصر.

---

[24] Nous renvoyons à la traduction de la TOB, note d.

الإيمانيّة المسيحيّة

تقول : الإله خلق الإنسان على صورته وهكذا يجد الإنسان بفطرته الإيمان في قلبه

المسيحيّة هَرْطَقة يهوديّة، ورثت عن اليهوديّة كتابها وتَبنّته، غير أنّها تأوّلته غير تأويل اليهوديّة له، وسمّته العهد (Alliance) القديم. وأضافت إليه أناجيلها الأربعة، ونصوصا أخرى، خاصّة رسائل بولس (Les Epîtres de Paul) المُتأثّرة بالوثنيّة الروميّة تَأثرا شديدا، وهي أساس عقيدتها، إلى حدّ أنّ المسيحيّة في حقيقة أمرها إنّما هي بوليسيّة (Paulinisme). وسمّت المسيحيّة كتبها العهد الجديد. فالكتاب المقدّس (La Sainte Bible) يجمع بينَ العهدين. وهكذا نجد أيضا تفسير المسيحيّة لظاهرة الإيمان، من حيث هو في قلب كلّ إنسان بفطرته، في العهد القديم، الجِذْر المُشترك بينها وبين اليهوديّة، وفي العهد الجديد الخاصّ بها، أي في الكتاب المقدّس بعهديه، بما ينشأ عن ذلك من إيتلاف وخلاف.

ذلك أنّ المسيحيّة ترى أنّ بني إسرائيل خانوا العهد الذي عاهدوا الإله عليه، ونقضوه حينما جاءهم يسوع ابن الإله، وهو فرد منهم تجسّد فيه الإله الأب، وأرسله إليهم، بعدما بشّر به عهدهم، فأنكروه، وطالبوا بقتله، فاستجاب لهم الوالي الروماني، وحمّلهم دَمَه فحملوه، فقتله صَلْبا على الصليب. وهكذا، بعدما كان بنو إسرائيل "الشعب المُخْتار"، أصبحوا "الشعب قاتل الإله" (Le Peuple déicide). وهكذا أصبحت المسيحيّة، التي آمنت بابن الإله، "إسرائيل الجديد" (Le Nouvel Israël)، وعوّضت اليهوديّة، لأنّها بقتلها ابن الإله والإله في نفس الوقت، فقدت وجودها كشعب، وأصبح اليهود شَتاة بين الأمَم، أفرادا يُعبّر على كلّ واحد منهم باليهودي التائه (le juif errant).

من وِجْهَة نظر المسيحيّة الإنسان ارتكب الخطيئة الكبرى التي لا تُغتفر، خطيئة الجنس، فطرده الإله من الجنّة وأسقطه إلى الأرض ليشقى فيها، ولعنها من أجله وجعلها لا تُنبت إلاّ الحسك والشوك. وبعد أمد لا يحصر طولا، ندم الإله وراجع نفسه، واكتشف أنّه إله المحبّة، وأنّه من أجل محبّته في الإنسان خلقه على صورته وأعطاه شكله، وهو شكل ابنه الذي وُلِد عليه، وعاش عليه ككلّ إنسان يأكل الطعام ويقضي الحاجة البشريّة. وهكذا يجد الإنسان الإله الذي لمَسَه وعاشره، لا في قلبه فقط بفطرته لأنّه خُلِق على صورته، بل حتّى في الاشتراك معه في حياته اليوميّة. وبهذا تجلّى الإله إلى الإنسان بصفة يستحيل تجاوزها على الاطلاق. في هذه الحال لا يجد الإنسان، كما هو الشأن في اليهوديّة، الإيمان بالإله في

قلبه، فقط بمقتضى عهد عاهده عليه يُجسّده الختان في جسده، بل بصورة أكمل وأتمّ، قلنا إنّه يستحيل تجاوزها على الاطلاق. فتخلّت إذن المسيحيّة عن الختان وأهملته لأنّه أصبح لا حاجة إليه.

بقيت قضيّة الخطيئة التي لم تُعرها اليهوديّة كبير اهتمام. وأصبحت تحتلّ في عقيدة المسيحيّة مكانا مركزيّا. فهي حجر الزاويّة في عقيدتها. لأنّه لا يكفي أنْ يتجلّى الإله إلى الإنسان : لا بدّ أيضا من المصالحة بينهما. لقد تَمّ ذلك بغسل البشريّة من الخطيئة. الإله اليهودي له أبناء عديدون. وقد رأينا كيف وزّع بينهم الأمَم. إله المسيحيّة، الإله الأب، له ابن واحد. وهو في نفس الوقت إله كامل الألوهيّة مع أبيه. فكّر إذن الإله الأب : كيف يغسل البشريّة من خطيئتها؟ وذلك حتّى تتأكّد محبّته للإنسان بدون أيّ شائب يَشوبها ويُعكّر صَفْوها، ويجعلها مُتَناقضة مع طرده من الجنّة والحُكم عليه بالشقاء السَرْمَدي المُؤَبَّد في أرض لعنها من أجله وجعلها لا تُنبت إلاّ الحَسَك والشوك. فكّر مليّا. فكّر وقدّر ودبّر. لا بُدّ من غسول ناجع. لم يجد سوى دَم ابنه الوحيد. لِمَ؟ لا شَكَّ لأنّ الصِناعات لم تكن متقدِّمة في ذلك العصر كما هي في عصرنا. فأنزل ابنه إلى الأرض، ليغسل بدمه الإلهي الشريف خطيئة الإنسان محبّة في الإنسان. وصلبه على الصليب. واستغاث ابن الإله، بالإله الأب، فلم يغثه بالرغم من طلبه الإغاثة بإلحاح، فتخلّى عنه وتركه يموت في عذاب شنيع أليم، تُسهب الأناجيل في وصفه. وهكذا غَسَل الإله الإب الخطيئة. والواقع المُعاش يوميا لا يترك لنا بُدّا من الاعتراف أنّ الإله الإب ارتكب أشنع جريمة في الكون بدون جدوى : غَسْل الخطيئة الموهومة، بدَم الجريمة، لم يُغيّر من حال البشريّة شيئا. بَقيت هي، هي. وهكذا تصف المسيحيّة نفسها بأنّها دين المحبّة !

لإيمانية الإسلاميّة

تقول : الإنسان يجد الإيمان في قلبه بفطرته، لأنّ الله أخذ ميثاقه أن يؤمن به.
وذلك في المستوى الأزلي، حيث كان الإنسان مشروعا، متواجدا لنفسه بالقوّة، قبل وجوده بالفعل

تفسير الإسلام لظاهرة الإيمان نجده في القرآن كلّه ، في آيات متعدّدة تهتّم بخلق الكون كلّه، وكلّها تفسّر ظاهرة الإيمان، الّذي يجده الإنسان، ولو بمجرّد التساؤل وطرح السؤال، في قلبه بفطرته الّتي فطره الله عليها، عندما فَطره، أي فَصله، عن بقيّة الحيوان في سيل نهر الحياة الّذي لم ينته العلم من سَبْر أسراره منذ كشف عنه داروين (Darwin) في أواسط القرن التاسع عشر. الله يخاطب الإنسان، فيما لا يقلّ عن 76 آية، في لغة ضرب الأمثال والاستعارة والتكنيّة، اللغة الوحيدة الّتي يمكن بها مخاطبته للتعبير عن الغيبيات، لغة تترك المجال للتأويلات. والتأويلات تتطوّر بالتطوّر الإنساني، وما يُوَاكب ذلك من تقدّم العلوم.

القراءات الغير الإسلاميّة للقرآن.

وقبل أن نواصل لابدّ من تنبيه المسلم العادي، وقد يكون مثقفا ثقافة عالية من غير أن يكون حتما بالضرورة مطّلعا على القراءات الغير إسلاميّة للقرآن، ومنها النفاتيّة، والاستشراقيّة، اليهوديّة، والمسيحية والانسلاخِسْلاميّة لكتاب الله. إنّ هذه القراءة بطبيعتها معاديّة للإسلام، وقد بدأت منذ أوائله، منذ وضع اللعنة على محمّد – عليه أفضل صلاة وسلام ! – وعلى الإسلام، المجمع المَسْكوني الّذي انعقد سنة 680، ولم تُرْفع هذه اللعنة إلى اليوم، بالرغم عمّا يُسمّى بالحوار الّذي لم يكن سوى فَخّ وقعنا فيه وخديعة.

يَجمع بين كلّ هذه القراءات القول بأن القرآن مُفْترى، افتراه محمّد، وهذا ما اتّهمه به المكذّبون برسالته في عصره، ونجد ذلك فيما يزيد عن 32 آية. ثمّ فيما بعدُ نسجته رياح التاريخ[25] من جنوب وشمأل بالزيادة والنقصان، فأتى يَغْلب عليه الغَثّ وقلّ فيه السمين. قد تأتي هذه القراءة تارة مُحرِّفة تحريفا جليّا مقصودا، وهي في هذا الشكل ما زالت متواصلة إلى اليوم. وقد تأتي في شكل يوهم أنّها عِلميّة، وهي كلّها مغالطات استِنْقاصيّة استهزائيّة.

---

[25] على سبيل المثال نحيل على كتاب الأستاذ عبد المجيد الشرفي، *الإسلام بين الرسالة والتاريخ* ، دار الطليعة، بيروت، 2001 . وأتى في التعريف به أنّه " يمثّل مجموعة محاضرات كان قد ألقاها في الجامعة التونسيّة"

وهذه القراءة هي الأكثر انتشارا اليوم، وهي التي أثّرت خاصّة في عدد كبير من الجامعيّين الّذين نشؤوا في عائلات مسلمة، فانسلخوا عن الإسلام، وضمّوا أقلامهم إلى أقلام الاستشراقيّة اليهوديّة المسيحية. وشعارهم رفع القداسة عن القرآن، وقراءته كنصّ بشري تخمّرت نواته الأولى في دماغ محمّد المحموم المُهَلوَس. ثمّ تعاور التاريخ هذا النصّ بالزيادة والنقصان على مدى أكثر من قرن، وعندما ظهر الكاغض أثبت بالكتابة، وهكذا نشأ المصحف المُغلق بأساطيره وشتّى حماقاته. نحن نترك الحماقات لِلانسلاخسلامين ولِمَن علّمهم الحمقات، وقد رأينا منها باقة.

قراءتنا قراءة إسلاميّة مُلتزمة.بعد تمحيص وفكر وتدبّر.

أنبّه إلى هذا لأنّ أخشى ما أخشاه على الجمعيّة التي أسّستها، وهي الجمعيّة الدُوَليّة للمسلمين القرآنيّين، الاندساس (l'infiltration)، وقد بدأت تلوح بوادره في صفوفها، والانحراف بها عن روحها وأهدافها. هناك مَن يفهم من قولنا "المسلم القرآني"؛ المسلم الّذي يعيد النظر في القرآن، ويضعه موضع قراءة نقديّة جديدة مفتوحة لكلّ الأهواء، لكلّ التساؤلات ولكلّ الشكوك فيه : هل هو مُفترى؟ وقد قال ذلك في زمن الرسول مَن كذّبوا به وورد ذكرهم فيما يزيد عن 32 آية. هل كلّ ما فيه جدير بالاحترام، أم فيه ما هو جدير بالاستهزاء؟ قد سبق إلى الاستهزاء به المكذّبون في أيّام الرسول ويحكي الله أقوالهم في 35 آية. هل نقبل كلّ ما فيه؟ وفيه ما يُثير سُخطنا كالرقّ، والزواج بالصغيرات، وتعدّد الزوجات، واتّخاذ الجواري، وقد فعل ذلك الرسول، فكيف يستحقّ أن يكون "*أسْوة حسنة*" (الأحزاب، 33 : 21) ! وهلمّ جرّا، ولنا على كلّ هذا ردود.

لكن لكلّ مقام مقال، وليست جمعيتنا مقام الشكوك والردود. جمعيتنا تحترم كلّ الحريّات وتدافع عنها، بما في ذلك حريّة كلّ مسلم يريد أن يمارس حقه في إعادة النظر النقدي المستمرّ في القرآن، ممّا قد يدفع به إلى مواقف تجعل جمعيّتنا تعتبره منسلخا عن الإسلام. ذلك أنّ جمعيّتنا ملتزمة بحكم نظامها الأساسي. فهي ليست جمعيّة انسلاخسلاميّة أو تمهّد لها. وليست حَلبة مُساجلات ومُجابهات، أو نظر نقدي يأخذ من القرآن ويترك، ويمدح ويذمّ، ويفتح الباب للطعن فيه. فكلّ مَن يريد أن يجعل منها مَحَلّ شكوك ومُجادلات لا محلّ له فيها. وهو بفعل الواقع مَرْفوت منها. وذلك على الأقل من باب سدّ الذريعة، وحمايتها من الاندساس فيها لنَسْفها من الداخل.

نُؤكّد : المسلم القرآني هو مَن، بعد تمحيص وفكر وتدبّر، قد تجاوز مرحلة إعادة النظر في القرآن باستمرار لا ينتهي ولا يقف عند حدّ. المسلم القرآني ملتزم بالإسلام إيمانا بالقلب وعملا بالجوارح، يعتقد أنّ القرآن هو "*الحقّ اليقين*" (الحاقة، 69 : 51)، "*لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد*" (فُصّلت، 41 : 42.) نحن إذن

نؤمن بأنّ القرآن كلام الله حقا، أنزله بالحق وبالحقّ نزل، يُغذّي الإيمان في قلوبنا ويُعلّمنا فيما يعلّمنا الحكمة (البقرة، 2 : 129، 231،151، 251، 269 ؛ آل عمران،3 : 48، 164،81 ؛ النساء،4 : 113،54 ؛ المائدة، 5 : 110 ؛ النحل، 16 : 125 ؛ الإسراء، 17: 39 ؛ لقمان، 31 : 12 ؛ الأحزاب، 33 : 34 ؛ صاد،38 : 20 ؛ الزخرف، 43 : 13 ؛ القمر، 54 :5 ؛ المعة، 62 : 2).

في قراءتنا للقرآن يجب ألاّ ننسى أبدا أنّه حكمة. والحكمة لا تتأثر بزمان ولا مكان، إنّما هي بطبيعتها صالحة لكلّ زمان ومكان، وصلتها بالمنطق والعقل متينة : فهي مقامٍ مشترك بين كلّ الناس. ففي كلّ حال من الأحوال، كتاب الله يدعونا إلى العمل بالحكمة، والأخذ بالأفضل، وعند الاقتضاء تأويل حرفه، الذي لا يمكن ألاّ يكون الأفضل في زمانه ومكانه، لكن طِبْق عُرف القوم وعقلياتهم. فإذا ما تغيّرت الأزمنة والأمكنة والأعراف والعقليات، وجب تجاوز الحرف عملا بما توجبه الحكمة والمقاصد والغايات الإلهيّة. وذلك ما نُسمّيه القراءة السهميّة للقرآن. ونجد فيه برمجة الإنسان على الإيمان.

في المستوي الأزلي الله برمج الإنسان على الإيمان.

ويبهرنا بمعجزاته، ومنها العِلميّة. ومن هذه المعجزات العِلميّة ما يخصّ خلق الإنسان، وبها عنايتنا هنا، لا نقرأها قراءة استِنقاص وسخريّة وتحريف. إنّما نقرأها قراءة ثريّة مثريّة، مع الأمانة لصريح النصّ وحرفه، بدون أن نَستَجْدِيَه (solliciter) لنحمّله ما ليس فيه، وبدون أن نقع فيما يسمّيه عياض ابن عاشور وشيعته الانسلاخسلاميّة توافقاتيّة (concordisme) مُتَكلّفة، بكثير من التحميق والتحقير والسخريّة، أخذا عن أساتذته، أساتذة الاستشراق اليهودي المسيحي. إنّنا نكتب للمسلم الّذي تحيّره الأباطيل وتتقاذفه أمواج المُضلّين. هذا لا نَقتأ نُؤكّد عليه لكثرة الطعون في كتاب الله.

في هذا المستوى الله برمج الإنسان كي يؤمن به. ولهذا يجد كلّ إنسان الإيمان في قلبه، على الأقلّ عن طريق التساءل[26] : مَن أنا؟ ماذا أفعل؟ إلى أين أنا؟ ومن ذلك آيات، لا مثيل لها في الكُتب الّتي سبقت القرآن، المقدّسة وغيرها، فيها يخبرُنا الله كيف، عندما كان كَوْنُنا مشروعا في علمه يُخطّط لخلقه، كتب الإيمان به في قلب كلّ إنسان. كتبه في ظهور ذُرّيّة آدم، نقول اليوم كتبه في عُصَيبنات (neurones) دماغ كلّ إنسان، عندما بلغ الإنسان، في نهر الحياة الطويل، قِمّة الحيوانيّة. وذلك حسب مُخطّط الله عليه. يقول الله لنا هذا في آية وقع الاتّفاق على تسميتها بآية شهادة الذرّ، وذلك في المستوى الأزلي، عندما كان الإنسان مُتَوَاجدا لنفسه بالقوّة، قبل أنّ يوجَد بالفعل في عَالَم الوجود. يقول الله :

---

[26] نحيل على كتابنا ، *ليطمئنّ قلبي* ، ترجمة فرنسيّة بقلم محمّد صالح بربوش : *Pour que mon cœur se rassure ,* Nirvana, Tunis, 2010

"وإذ أخذ ربّك من بني آدم، من ظهورهم، ذُرّيتهم، وأشهدهم على أنفسهم : ألستُ بربّكم؟ - قالوا بَلى، شهدنا ! – أنْ تقولوا يوم القيامة : إنّا كنّا عن هذا غافلين؟ أو تقولوا : إنّما أشرك أباؤنا من قبْلُ، وكنّا ذرّيّة من بعدهم. أفتُهلكنا بما فعل المبطلون ! " (الأعراف، 7 : 172 – 173).

سورة الأعراف مكيّة، رقم نزولها 39. بنصّ هذه الآية، في لغة التوريّة والاستعارة، الإنسان، عندما كان مشروعا في المستوى الأزلي، متواجدا لنفسه بالقوّة (en puissance)، قبل أن يخرج إلى الوجود بالفعل (en acte)، خلقه الله مُبَرْمَجا كي يُؤمن به، وكتب ذلك في *ظهور* بني آدم. وهكذا يجد كلّ إنسان الإيمان بالله في قلبه، بحكم البَرْمَجة الأزليّة التي بُرْمِج عليها في المستوى الأزلي، والتي في هذا المستوى استُشهدَ عليها فشهد. وذلك لغاية مهمّة كلّفه بها، سنراها. وفي هذا المستوى الأزْلي، بعد ما كتب الإيمان في قلب الإنسان كتابة لا تُمحى، عرض الله مشروعه على الملائكة. يقول لنا الله :

"وإذ قال ربّك للملائكة : إنّي جاعل في الأرض خليفة. قالوا : أتجعل فيها مَنْ يُفسد فيها ويسفك الدماء ! ونحن نُسبّح بحمدك ونُقدّس لك. قال : إنّي أعلم ما لا تعلمون. وعلّم آدم الأسماء كلّها، ثمّ عرضهم على الملائكة، فقال : أنبِئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا : سُبحانك ! لا عِلمَ لنا إلّا ما علّمتنا، إنّك أنت العليم الحكيم. قال : يا آدم ! أنْبِئهم بأسمائهم. فلمّا أنبأهم بأسمائهم، قال : ألم أقل لكم إنّي أعلم غَيْب السماوات والأرض، وأعلم ما تُبْدون، وما كنتم تَكْتمون. وإذ قلنا للملائكة : لسجُدوا لآدم ! فسجدوا إلاّ إبليس، أبى واستكبر. وكان من الكافرين" (البقرة، 2 : 30 – 34).

الله "*علّم آدم الأسماء كلّها.*" فما معنى هذا؟ معنى هذا أنّ الله أعطى للإنسان، عندما كان مشروعا في عالَم الغيب عَرَضَه على الملائكة، دماغا ركّبه فيه بصورة تجعله مُهيّأ وقادرا على اكتساب لغة تَتّسع إلى الإحاطة بكلّ العلوم، وإلى التعبير عليها، بقدر ما يشاء الله : "*ولا يحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء*" (البقرة، 2 : 255). ونحن اليوم قد أحطنا بالكثير من هذه العلوم وعبّرنا عليها. ولا ندري القدْر الذي يشاء الله أن نحيط به، والبحث متواصل.

الله " *علّم بالقلم. علّم الإنسان ما لم يعلم. كلا إنّ الإنسان ليَطْغى، أن رآه استغنى. إنّ إلى رَبّك الرُجْعى*" (العلق، 96 : 4 – 5). ونحن نشاهد كلّ يوم كيف أكثر العلماء عِلما

يَطْغون. فيحسب النفاتيّة أنّ في إمكانهم الاستغناء عن الله، الّذي، في نظرهم اِفْتِراض وجوده لا يصلح لشيء، ويُمْكن الاستغناء عنه. فينفون وجوده، ويفسّرون وجود الإنسان بتفاعل المادّة العمياء مع الصدفة الّتي لا تقلّ عماء عن المادّة.

علّم الله "*آدم الأسماء كلّها*"، وذلك لغاية لا يعلمها إلاّ هو : "*إنّي أعلم ما لا تعلمون.*" مع علمه ذلك، الإنسان، الّذي يسفك الدماء ويُفْسد في الأرض ويَطْغى، لُغْزٌ لا يعلم سِرّ خلقه إلاّ مَن خلقه، وإن أماط خالقه الستار شيئا ما عن هذا السِرّ : الإنسان مُكلّف في الأرض بمُهمّة، وإن كُنّا لا نعلم شيئا عن هذه المُهمّة، الّتي يسميها الله الأمانة. يقول الله جلّ جلاله وتقدّست أسماءه !

"*إنّاعرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال، فأبَيْن أن يحملنها وأشْفقنا منها. وحملها الإنسان. إنّه كان ظلوما جهولا*" (الأحزاب، 33 : 72).

كلّ القُوَى النورانيّة (*السماوات*) والماديّة (*الأرض والجبال*)، على قوّتها، رفضت حمل الأمانة، الّتي تبدو كأنها ما نُسمّيه اليوم بالمهمّة المستحيلة. وحملها الإنسان الّذي كلّ الدلائل كانت تدلّ مَبْدئيّا أنّه غير مُؤهّل لحملها : "*وخُلِقَ الإنسان ضعيفا*" (النساء، 4 : 28). خُلق بِضْعة تافهة من أديم الأرض، وخُلق بطبعه الحيواني ظلوما، يُفْسد في الأرض ويسفك الدماء. هذا الإنسان الّذي كان يبدو أحقر المخلوقات كلّها، عرض نفسه ليحمل الأمانة، ولم تُعْرَض عليه. فسلّحه الله بالعلم، علّمه "*الأسماء كلّها*"، وأعانه بالهداية (البقرة، 2 : 38)، وأنزله إلى الأرض.

في المستوى الوجودي الأرضي :

كيف أخرج الله الإنسان، بعدما كتب الإيمان في قلبه واضطلع بالأمانة، من القوّة إلى الفعل؟

<u>أوّلا</u> : يُعْلِمنا الله أنّه خلق الإنسان من أديم الأرض، لا شكّ كي لا يخفى عليه منها شيء وهو منها، وحيث هو منها، كي يُصلحها، ويكون أحسن خليفة له فيها، على ضعفه وفسوقه. خلقه الله إذن "*من تُراب*". ترد هذه العبارة، حسب ترتيب النزول، الّذي يشير إليه الرقم الثاني، في 6 سور (4 منها مكيّة ؛ و 2 مدنيّتان : فاطر، 43/35 : 11 ؛ غافر، 60/40 : 67 ؛ الكهف، 69/18 : 37 ؛ الروم، 84/30 : 20 ؛ آل عمران، 89/3 ؛ الحجّ 103/22 : 5). ثمّ أدْخَل الله على التراب تحويلات عديدة على مرّ الزمان، هيّأته كي تنشأ منه الحياة، يذكرها الله، في لغة الاستعارة والمجاز، في الآيات التاليّة :

"*ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حَمَإ مسنون*" (الحِجْر، 54/15 : 26).

" *هو الّذي خلقكم من طين، ثمّ قضى أجلا. وأجلٌ مسمّى عنده. ثمّ أنتم تَمْتَرون*" (الأنعام، 55/6 : 2).
"*إنّا خلقناكم من طين لازب*" (الصافات، 56/37 : 11).
"*ولقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين. ثمّ جعلناه نُطْفَة في قرار مكين*" (المؤمنون، 74/23 : 12- 13).
"*خلق الإنسان من صلصال كالفخّار*" (الرحمان، 97/55 : 14).

يقول الطاهر ابن عاشور[27] في تفسيره لآية الحِجر : "*الصلصال الطين الذي يُترك حتّى يَيْبس*" فيصبح شبه الفخار. "*والحَمَأ الطين إذا اسودّ وكُرِهَت رائحته ... والمسنون الذي طالت مدّة مُكْثِه*." وهذا يُوافق قوله "*ثمّ قضى أجلا*." ويقول لنا الله إنّ هذا الأجل لم يُتْرَك للصدفة، إنّما كان " *مسمّى عنده*"، أي مقدّرا كي يصبح، " *من طين لازب*"، أي مُطاوع لما يُراد منه. والمُراد منه هو أن تَنشأ فيه الحياة. أن تنشأ فيه أوّل " *سُلالة*" حيّة (cellule).

ثانيا : القرآن تَطوُّريٌّ[28]. نجد ذلك في كثير من الآيات. وخصّ الله سورة الإنسان، وهي سورة مدنيّة، رقم تنزيلها 98، من مجموع 114 سورة، أي أنّهـا من آخر ما أنْزل، ليحدّثنا كيف تمّ خلق الإنسان بالفعل في المستوى الوجودي على مراحل، بعدما كان مشروعا في عالم اللانهاية، عندما قضى الله أن يخلق الكون الذي نحن فيه، وخطّط لذلك، وعرض مخطّطه على الملائكة والجنّ (البقرة، 2 : 30 – 34)، وأخبرهم أنّه سيتّخذ من الإنسان خليفة له في الأرض.

الله يقول :

"*هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا. إنّا خلقنا الإنسان من نُطفَة أمشاج. نَبْتَليه، فجعلناه سميعا بصيرا. إنّا هديناه السبيل : إمّا شاكِرا، وإمّا كفورا*" (الإنسان، 76 : 1- 3).

النُطْفَة، التي فصلت الإنسان عن الحيوانيّة، يصفها الله بـ"*نُطفة أمْشاجٍ*." ما معنى ذلك؟ معنى ذلك هو أنّها نُطْفة جديدة مَمْزوجة (*أمشاج*)، أي أنّه أجْرِيَت عليها طَفْرَة (mutation)، وهذه الطُّفرة هي التي فصلت فِعلا أوّل إنسان عن الحيوان، يسمّيه العِلم اليوم المُؤنّس (hominidé). كيف تمّ ذلك؟ الله يقول لنا أنّ ذلك تمّ "*أطوارا*" (نوح، 71 : 14)، أي على مراحل من التطوّر انتهى أوّلا، إلى الإنسان المُؤنّس، ثمّ إلى مَن يسمّيه العِلم اليوم الإنسان العاقل (homo sapiens). وكي نُدرك الإعجاز العلمي في كلّ هذا، يجب أن

---

[27] *التحرير والتنوير*، تونس، 1984، ج 14 ص. 41 – 42 .
[28] أحيل على كتابي *أمّة الوسط*، سراس، تونس، 1996 ، ص. 95 -115 .

نُنَبِّه أنّه إلى منتصف القرن التاسع عشر، أي قبل (Darwin)، كان القولُ قولَ الكتاب المقدّس، أي أنّ الإله يَهوه خلق الإنسان على صورته، وأعطى كلّ حيوان الشكل الثابت الّذي هو عليه إلى اليوم. كان القول بالثّبوتيّة (fixisme)، الّتي لم تزل ثابتة في عقول شرائح عريضة من المجتمعات إلى يومنا هذا شرقا وغربا.

يُعْلِمنا إذن الله كيف خلق " *الإنسان من سُلالة من طين*"، " *سُلالة*" (cellule) يشترك فيها مع كلّ الحيوانات. ودام هكذا حينا "*من الدهر*"، نعلم اليوم أنّه كان طويلا، طويلا جدّا، يقدّر بمليارات السنوات. على طول هذا "*الحين من الدهر*" الطويل الّذي يقدّر بمليارات السنوات، الإنسان "*لم يكن شيئا مذكورا.*" ثمّ جعله "*نُطْفَة في قرار مكين*" (المؤمنون، 74/23 : 12- 13). كلّ هذا، من منظورنا الإيماني القرآني، لم يكن صُدْفة عمياء، صادرا عن مادّة أشَدّ عماء، وإنّما كان بِقَدَر وحساب " *وأجَلٌ مسمّى عنده.*"

<u>ثالثا</u> : وبذلك يُعْلِمنا الله، يُعلمنا أنّه خلق كلّ شيء بقدَر، أي بقُدْرة تمكّنه من خلق ما يشاء، وفي نفس الوقت، وبهذه القدرة، خلق كلّ شيء بمقدار، أي بتركيب مُقدّرٍ مِن قَبْلُ، وموزون ومحسوبٍ بدقة مُسَبّقا، كي يكون ما يخلق، على الشكل الّذي أراده، ويجد كلّ ما يحتاج إليه كي يكون كذلك. وهذا لا يُعجزه لِأنّه سبقنا في اختراع الحاسوب، وحاسوبه، خلافا لِحاسوبنا، سُرْعته بلا حدود، لِأنّه "*أسرع الحاسبين.*" وهذا نجده في الآيات التاليّة :

التقدير بقُدرَة وبمِقْدار.

"*وكلّ شيء عنده بِمِقْدار*" (الرعد، 13 : 8).
"*وخَلقَ كلّ شيء فقدّره تقديرا*" (الفرقان، 25 : 2).
"*إنّا كلّ شيء خَلقناه بقدر. وما أمرُنا إلاّ واحدة كلمح البصر*" (القمر، 54 : 49 – 50).
" *إنّ الله بالغُ أمرهِ. قد جعل الله لكلّ شيء قَدْرا*" (الطلاق، 65 : 3).
" *قُتِل الإنسان [النُّفاتيُّ]، ما أكفره ! من أيّ شيء خلقه؟ من نطفة خلقه، فقدّره. ثمّ السبيلَ يَسّرَه*" (عبس، 80 : 17 – 20).

الحِساب بدِقة

تكاد تكون مستحيلة، تبْلغ 122 عَشْريّة بعد الفاصل، لو تغيّر منها بَرامِتِر (paramètre) واحد، لما كان الكون على ما هو عليه، ولما كان الإنسان، كما يثبت ذلك اليوم العلم.

"*ألا له الحُكم ! وهو أسرع الحاسبين* (الأنعام، 6 : 62).
" *إنّ الله كان على كلّ شيء حسيبا*" (النساء، 4 : 86).

"*الشمس والقمر بِحُسْبان*" (الرحمان، 55 : 5).

رابعا : كيف تمّ ذلك على أرض الواقع؟ ليس من شأن القرآن أن يفصّل لنا القول في ذلك. القرآن ليس بكتاب طِبّ، أو فَلَك، أو جغرافيا وما إلى ذلك. القرآن كتاب هداية إلى الله. نجد فيه كلّ ما يهدي إلى الله، وممّا يهدي إلى الله التدبّر في الخلق كلّه، بعوالمه، بل بعَالَمِينِه، في صيغة جمع الجمع، فهو "*ربُّ العالمين*" (الفتحة، 1 : 2)، بسماواتها، لا بسمائها الواحدة، بأراضيها، لا بأرضها الواحدة التي نسكنها فقط (الطلاق، 65 : 12).

القرآن كتاب هداية إلى الله، غير أنّ الله وضع فيه آيَاتِه، ووعدنا أنه في المُستقبل، مهما قَرُب أو بَعُد، سيُرِينَها في كلّ شيء، في الفضاء وفي جسدنا، حتّى يتبيّن لنا بالبُرهان العِلمي القاطع، أنّ كلامه، كما نجده في القرآن، هو الحقّ :

"*سَنُريهم آياتنا في الأفاق، وفي أنفسهم، حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ. أولم يكف بربّك أنّه على كلّ شيء شهيد؟ !*(فصّلت، 41 : 52- 53).

وهذا الوعد الإعجازي، اليوم نراه يتحقّق يوما بعد يوم، "*في الأفاق*" ولنا إلى ذلك عَوْد، " *وفي أنفسنا*"، وبذلك نبدأ.

كلّ ما تقدّم فهو من الآيات. والله يأمرنا بإلحاح في كلّ القرآن، أن نفكّر، ونتدبّر، وننظر، كي نكتشف بأنفسنا وبعقولنا كيف خلق الخلق كلّه (*الأفاق*). وكيف خلق الإنسان بالفعل وعلى أرض الواقع، بعد ما برمجه على الإيمان في المُسْتوى الأزلي. الله يأمر الإنسان أن يسبر أعماق "نفسه." فسبرها فوجد أوّلا في جسده عالَما بديعا عجيبا. وتقدّم العِلم حديثا جدّا، فوجد في دماغه المُفَكِر، وهو ما تعنيه على الخصوص عبارة "نفس" الّتي تلتزم حتما الوعي والتفكير، أنّ الإنسان مُبَرْمَج كي يُؤمن بالله. وما كان أيّ عالِم من العلماء يترقب ذلك أو قُل حتّى يتوهّمه. ونذكّر أنّه قد سبق أنّ الله يقول لنا إنّه هو الّذي برمجه.

آندريو نيوبارق (Andrew Newberg) كان أوّل مَن اكتشف ذلك. وهكذا نشأ عِلم جديد وحديث أعطاه آندريو نيوبارق اسم (neurothéologie)، وتعريبه من وضعنا : عِصابلاهوتية. المؤلفات في هذا العِلم الحديث، ابتداء من وسط الثمانينات، أخذت تتابع بسرعة يوما بعد يوم، بحيث يعسر إحصاؤها، مع الاختلافات الطبيعيّة. باسكال بوايين (Pascal Boyen) يكتب في مقدّمة مُؤلّفه *الدين كمظهر بَشَري*[29] :

"*أحاول، في هذا الكتاب، أن أقيم الدليل على أنّ مظاهر هامّة من التصوّرات الدينيّة، ناشئة ومُضْطَرّة (sont déterminés et contraints)، عن الخصائص العالميّة للدماغ/الفكر الإنساني.*"

---

[29] *La religion comme phénomène humain*, Bayard, Paris, 1997, p. 6.

أمّا جيرالد ايدِلمان (Gerald Edelman)، في مُؤلفه *بيولجيّة الضمير*[30] فإنّه يُبرز على الخصوص التطوّر الغريب العجيب المُوَجَّه، الّذي حدث في نهر الحياة، عندما بلغ الدماغ قمّة التطوّر، الّتي جعلت من الحيوان إنسانا ذي عقل ورويّة. عند أبسط الحيوانات، لا يزيد الجهاز العُصيبُني (neuronal) عن جعبة فيها بعض العُصيبنات (neurones) القليلة العدد. وعندما نبلغ الإنسان يصبح عددُها مهولا مُذهلاً يبلغ مليارات المليارات. ونكتفي، نقلا عن جيرالد ايدِلمان، بعدد الروابط (connexions)، الّتي تلعب دورا أساسيا في الجهاز الدِماغ : " *إنّه تقريبا، يوجد مليون مليار من الروابط بين العُصيبنات، الّتي تكوّن المَمسّات (synapses)، وذلك في مِنطقة القِشرَة الدماغيّة.* "

العِلم الحديث، وإن اختلفت الآراء بين العلماء، يُثبت في نظرنا ما أنبأ به الله : إنّ الإنسان مبرمج كي يؤمن بخالق حكيم. فتبارك "*الّذي أحسن كلّ شيء خلقه !* " (السجدة، 32 : 7)، وأرانا آياته في أنفسنا كما وعد. وكذلك العِلم – " *وقل ربّي زدْني عِلما*" (طه،20 : 114) -- يكتشف بلا انقطاع الآيات في الآفاق، كما وعدنا خالقنا أيضا. يقول الله :

"*أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض، وما خلق الله من شيء !*" (الأعراف، 7 : 185).

" *أولم يروا كيف يُبدئ الله الخلقَ، ثمّ يعيده. إنّ ذلك على الله يسير. قل: سيروا في الأرض، فانظروا كيف بَدَأ الخلق. ثمّ الله يُنشئ النشأة الآخرة. إنّ الله على كلّ شيئ قدير*" (العنكبوت، 29 : 19 – 20).

نُؤكّد مرّة أخرى، لما لذلك من الأهميّة لتحاشي سوء فهم موقفنا من الإعجاز العلمي، أنّ القرآن ليس بكتاب علوم من أيّ نوع كانت. لكنّ مادّة ع ل م تأتي في القرآن 855 مرّة. والله هو العليم (157 مرة)، يحثّ على طلب العلم، وقد علّم آدم الأسماء كلّها كما رأينا. ولا صلة لهذا العلم بالعلوم الدينيّة بالمرّة ولو مرّة واحدة، كما يدّعي الاستشراق وذيله الانسلاخسلامي الّذي يضع حافره في حافره في كلّ شيء. ويأتي ذكر العقل في القرآن ما يزيد عن 50 مرّة، بينما لا وجود له البتّة، ولا للعلم، في أيّ كتاب مقدّس آخر، وهذا يكفي بمفرده للتدليل على إعجاز القرآن العلمي[31]. ونقرأ في القرآن هذا الاستفهام الإنكاري :

---

[30] *Biologie de la conscience*, Odile Jacob, Paris, 1992, p. 32. Nous renvoyons aussi à Jean-Pierre Changeux, *L'home neuronal ;* et *L'homme de vérité*, Odile Jacob, Paris 2002.

[31] En ce qui concerne l'attitude des désislamisés qui emboîtent les pas de l'Orientalisme, avec les mêmes ricanements, l'ouvrage le plus récent est celui de la physicienne et professeur tunisienne, Faouszia Farida Charfi, *La Science voilée : Science et Islam*, Odile Jacob, Paris, 2013.

"*أفلا تعقلون !*" ويتكرّر هذا الاستفهام 13 مرّة. بالعقل اكتسب إذن الإنسان العلم. وبالعِلم يكتشف الآيات يوما بعد يوم. ومن إعجاز القرآن العلمي، هو أنّ كلّ ما ثبت بصفة قطعيّة من اكتشافات العلم، يُفصِّل بصورة علميّة ما أشار ورمز إليه اقرآن. فلا تناقض بين العقل والعقلانية من ناحيّة، والقرآن من ناحيّة أخرى. ولا خلاف، بين ما ثبت من اكتشافات بصورة يقينيّة، وبين القرآن، بل العكس.

لقد سار إذن الإنسان في الأرض كما أمره الله، وعندما اكتسب "السلطان[32]" بِعُصَيبنات دماغه المُعْجِز، بدأ يَسْبُر "الآفاق"، وحصد من العلوم حَصادا ما كان ليحلم به، ولا ندري ما سيحصد غدا وبعد غد، ولا متى سينتهي حصاده. المستقبل مفتوح، وكلّ شيء مُبَرْمج بحساب وأجل : "*ثمّ قضى أجلا. وأجلٌ مسمّى عنده*" (الأنعام، 6 : 2).

نفذ إذن الإنسان إلى الآفاق، وخلافا لما كان يعتقده علماء الماديّة، اكتشف أنّ عالمَنا له بداية، بدأه الله منذ ما يُقدّر بما بين 15 و 13.5 من مليارات من السنوات ("*يُبدئ الله الخلق، ثمّ يعيده*")، بدون شكّ بعد عوالم أخرى بدأت وانتهت، وبدون شكّ سيعيده لا ندري حتّى متى : "*يُبدئ الله الخلقَ، ثمّ يعيده.*"

أمّا سِنّ أرضنا الّتي منها خُلقنا، حسب ما انتهى إليه اليوم عِلم علمائنا، فيُقدّر بـ 4.6 مليار سنة. ويقول لنا عِلمنا اليوم أنّ أرضنا بقيت خالية قفراء جامدة، لا حياة فيها لمَن تُنادي، ما يُقدّر بمليار سنة. وكان الطين غالبا عليها، والطين أفضل قادح (catalyseur) يساعد على عديد من التفاعلات العِضويّة (organiques) الّتي تنشأ منها الحياة. الأرجح الّذي عليه إجماع العلماء هو أنّ الحياة بدأت في شكل حامض أميني (acide aminé)، له رائحة كريهة تُشبه رائحة النُشادر (ammoniaque). يرمز الله إلى ذلك بقوله : "*من حَمَإٍ مسنون.*" أيّ من طين طالت مدّة مُكْثِه حتّى أصبحت له رائحة كريهة، وقد سبق تَفسير ذلك. يقول العلماء اليوم : تَكَوّنَ الحامض الأميني في الطين لما لهذه المادّة، الّتي كانت تَغْلب على سطح الأرض، من خصائص تؤهّلها لذلك. لكن هناك أيضا مَن يَرَى أنّ الحياة تكوّنت أوّلا في الفضاء ثمّ أمْطِرَت بها الأرض. وأطلقوا على هذه النظرية مُصْطَلح بانسْبارمي (panspermie).

ويُستَفاد من المُسْتحْجِرات (fossiles)، الّتي اكتشفها الإحاثِيّون (paléontologues) والإناسيّون (anthropologues)، عندما ساروا في الأرض كما أمرنا الله، وحفروها ونقبوها، أنّ الأرض عمّرتها أوّلا بِمُفْردها، على مَدى 3 مليارات من السنوات، البَكْتِريّات ذات السُلالات (cellules) بلا نواة. ثمّ فَجْأة، من دون أن نعلم إلى

[32] "*يامَعْشر الجنّ والإنس ! إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض، فانفذوا. لا تنفذون إلاّ بسلطان*" (الرحمان، 55 : 33).

اليوم السبب في ذلك، (نقول في الأجل المُسَمّى)، في العهد المعروف بالكامْبري (l’ère cambrienne)، أي مُنذ ما يُقدّر بـ 540 مِليون سنة، انفجرت مجموعات حيوانيّة عديدة، مُعقدة التركيب أكثر فأكثر، مختلفة ومتنوّعة، لم تعهد من قبْلُ. ثمّ، فجأة أيضا، مُنذ ما يُقدّر بـ 250 مِليون سنة، بدون سَبَب معلوم إلى اليوم أيضا، كادت تنقرض الحياة من الأرض. ثمّ بدأ خلق جديد (*بَدَأ الخلق. ثمّ الله يُنشئ النشأة الآخرة*) متواجد إلى اليوم، هو الخلق الذي نعرفه، خلق انتهى بظهور الإنسان في نهر الحياة، بعد ما مرّ بكلّ أشكال الحياة الحيوانيّة، طورا بعد طور، على مدى 3.5 مليارات من السنوات، إذا ما اعتبرنا أنّ الانطلاق بدأ بالبَكْتِريات.

أوّل حيوان مُؤَنّس (hominidé) ظهر منذ 5.2 مِليون سنة. لكنّه لم يُصبح بَعْد إنسانا تَماما كامل الصفات. يجب أن ننتظر ما يزيد عن 5 ملايّين من السنوات، أيّ في اعتقادنا أيضا الأجلّ المُسمّى، قبل أنْ يظهر الكائن الذي أطلق عليه أهل الاختصاص اسم الأناس العاقل (homo-sapiens). كلّ المؤنّسين انقرضوا، وكأنّها محاولات أخفقت. ولم يبق في المَسرَح ما سوى الأناس العاقل، وهو في نشوئه قريب منّا جدّا : نشأ منذ حوالي 100.000 سَنة فقط. وهو جدّنا الأعلى، تجمّعت فيه كلّ صفات آدم في القرآن. منذ ظهوره نجده يدفن موتاه في القبور بشعائر دينيّة تدلّ على أنّه كان يؤمن بخالق يعبده، وكان يؤمن بالبعث. ولقد بلغتنا بعض هذه القبور، وتاريخها يعود، بصفة عِلميّة ثابتة، إلى نحو 100.000 سنة قبل يومنا هذا، أيّ أنّها تواكبت مع ظهور مَن يُسَمّيه القرآن آدم.

عندما بلغ الإنسان، في سِلسلة التطوّر الحيواني، قِمّة الرقِيّ، وأصبح دماغه صالحا وقابلا لإدْراك ذاته، واكتسب القدرة على إدراك فَرْديّته وما يميّزه عن بقيّة الحيوان، اكتسب بالفعل (en acte) اللغة التي كتبها الله في قلبه بالقوّة (en puissance) في المستوى الأزلي، عندما كان آدم مشروعا أنبأ الملائكة بأسماء الأشياء كلّها، وقد عجز الملائكة عن ذلك (البقرة، 2 : 31). يقول الله إنّه، عندما خرج الإنسان من القوّة إلى الفِعْل في المستوى الوجودي، "*علّمه البيان*" (الرحمان، 55 : 4)، فأصبح عندها "*سميعا بصيرا*"، أصبح إنسانا حقّا عاقلا (sapiens)، متكلّما بكلام أرْضِيّ، يختلف باختلاف المجموعات البشريّة التي عمّرت الأرض كلّها. وما زال هذا الكلام يتطوّر ويثْرى، يُبين فيه الإنسان بأكثر فأكثر دِقّة ووُضوح، عن رغائبه وغاياته، ويبني به علاقات اجتماعيّة مع غيره، ويُدَوّن به العلوم تدوينا تراكميا بالقلم، كي تدوم العلوم وتنمو بلا انقطاع. يقول الله – جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه ! -- في أوّل ما أنزل من القرآن :

" *اقرَأ باسم ربِّك الّذي خلق. خلق الإنسان من عَلَق. اقرَأ وربُّك الأكرم. الّذي علّم بالقلم. علّم الإنسان ما لم يَعْلم. كلاّ إنّ الإنسان ليَطْغَى أن رَءاه استغنى. إنّ إلى ربِّك الرُجْعَى*" (العَلق، 96 : 1-8).

هذا الإنسان وضع الله في عُصَيْبنات دماغه طاقة كُمُونِيُّة (potentielle)، لا يستخدم منها إلى حدّ اليوم ما سوى 10 في المئاة. بها يُعَلِمُه الله باستمرار، بالقلم الّذي به تتراكم وتَنْمُو المعرفة، " *ما لم يَعْلم.*" كتب الله الإيمان به في قلبه في المستوى الأزلي، ومرّ بكلّ المراحل الّتي سبقت. واختار هذا الإنسان الحريّة، فوهبها الله له : " *إمّا شاكِرا، وإمّا كفورا*" ((الإنسان، 76 : 3).

الشاكر، يجد الإيمان في قلبه، فيؤمن، وكلّما ازداد عِلما، ازداد إيمانا. وشعاره دائما، كلّما علّمه الله عِلما، أن يقول : " *رَبِّ زِدْني عِلما*" (طه، 20 : 114)، لأنّ العِلم لا ينتهي.

والكفور، يجد أيضا الإيمان في قلبه، غير أنّه كلّما ازداد عِلما، ازداد كفرا وطغْيانا. فهو يُعجب بعِلمه، ويطغى " *أن رَءاه استغنى.*" أي إنّه، إذا ما بلغ درجة من العِلم، عِوَض أن يكون" *شاكِرا*" ويقول " *رَبِّ زِدْني عِلما*"، فهو يَحْسب أنّه يمكنه الاستغناء عن الله إلى حَدِّ أنه يجحد وجوده ويكفر به. وهذا وضع النُفاتي، الّذي يرى أنّه يُمكن الاستغناء عن خالق ذكيّ وقدير، خلق الخلق كله بتدبّر وحِكمة، خالق "*أحسن كلّ شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين*" (السجدة، 32 : 7)، وصوّره على الخصوص "*فأحسن*" صورته (غافر، 40 : 64). الكفور ينسب الخلق لِوجود مادة قديمة عمياء في ذاتها، نشأ فيها ومنها، بعامل الصُدْفة الّتي لا تقلّ عماء عن المادّة، الإنسان البصير العاقل الذكيّ. فيختار هكذا لنفسه اختيارا حُرّا أن يكون أعمى من المادّة العمياء. المسلم بصير شاكر، ويعتقد بحقّ أنّه يدين دين الحقّ.

المسلم يدين دين الحقّ ويملك الحقيقة.

لله يقول لنا، وقوله هو القول الفَصْل بالنسبة لنا :

" *شَهِد الله أنّه لا إله إلاّ هو، والملائكة وأولوا العِلم، قائما بالقسط، لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم. إنّ الدين عند الله الإسلام. وما اختلف الّذين أوتوا الكتاب إلاّ من بعد أن جاءهم العِلم، بَغْيا بينهم، ومَن يكفر بئايات الله، فإنّ الله سريع الحساب. فإذا حاجّوك، فقل : أسلمت وجهي لله ومَن اتّبعني. وقل للّذين أوتوا الكتاب والأمّيّين : آسلمْتم؟ فإن أسلموا، فقد اهتدوا. وإنْ تولّوا، فإنّما عليك البلاغ، والله بصير بالعباد.* (آل عِمْران، 3 : 18 – 20).

إذا ما كان المسلم يعتقد أنّه يدين دين الحقّ ويملك الحقيقة، فقضيّة الحقيقة لا بدّ من طرحها في كلّ أبعادها، الغير إيمانيّة والإيمنيّة، وذلك ما فعلنا، *والله بصير بالعباد*. ولا بدّ من حسمها قبل الانتقال إلى الفصل الثاني من هذه التذكرة، إذ كلّ ما سيأتي في هذا الفصل يتوقف على حسمها مُسبّقا. وهذا ما نفعل في هذا الباب.

إنّ كلّ مَن يعتقد اعتقادا بصدق، فهو بالضرورة يعتقد أنّه على حقّ ويملك الحقيقة. " *والله بصير بالعباد*." المسلم لا يشذّ عن بقيّة البشر. فهو يعتقد، بصدق وإخلاص، أنّه يدين بدين الحقّ ويملك الحقيقة، وهو لا يستطيع خلاف ذلك ما دام مسلما. الفرق، في اعتقادنا، بيننا وبين غيرنا في هذا المِضمار، هو أنّ دليلنا أقوى الأدلّة في هذا الميدان، ويتميّز على الخصوص بالعقل والعقلانيّة، فلا كتابَ ألحّ دعوة إليهما من كتاب الله. وقد سبقت آراء غيرنا وقلنا رأينا فيها، حتّى يكون اعتقاد المسلم عن بيّنة واطّلاع وبصيرة من أمره. وكلّ اِمْرِئ حُرّ في اعتقاده واختياره وهذا ما يُؤَكّد عليه كتاب الله :

" *لا إكراه في الدين. قد تبيّن الرُشْد من الغَيِّ. فمَن يكفر بالطاغوت، ويؤمن بالله، فقد استمسك بالعُرْوَة الوُثقى، لا انفصام لها. والله سميع عليم. الله وَلِيُّ الّذين آمنوا. يُخْرِجُهم من الظُلُمات إلى النور. والّذين كفروا، أولياؤُهم الطاغوت، يُخْرِجونهم من النور إلى الظلمات. أولائك أصحاب النار، هم فيها خالِدون*" (البقرة، 2 : 256 -257).

ذلك لأنّ الإيمان لا يكون إيمانا حقا، إلاّ إذا ما كان اقتناعا فرديّا عقلانيا لا يَرُوبُه رَيْب ولا يعتريه شكّ، لا تقليدا لما وُجد عليه الأباء والأجداد، ولا تَكيّفا بيئِيّا اجتماعيّا أعمى بلا رأي ولا رويّة. القرآن يرفض التقليد والتكيّف في آيات عديدة صريحة، عددها يقرب

من 30 آية. كان الوثنيّون في مكّة، عندما دعاهم الرسول إلى الإسلام، يرفضون هذه الدعوة، محتجّين بتقليدهم لدين آبائهم وأجدادهم ووفائهم له. وكان الله يدعوهم إلى ترك التقليد، وتحكيم العقل :

" *إذا قيل لهم : اتّبعوا ما أنزل الله، قالوا : بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءَنا.* " [فيجيبهم الله بجواب العقل والمنطق السليم، قائلا :] "*أوَلوا كان آباؤهم لا يعقلون شيئا، ولا يهتدون؟! ومَثل الذين كفروا كمثل الذي يَنْعق بما لا يسمع، إلاّ دُعاءَ ونِداءَ. صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ، فهم لايعقلون*" (البقرة،2 : 170 – 171).

ويستنكر الله عليهم تشبّثهم بتقليد آبائهم إلى حدّ إتيان الفاحشة – ونسبتها إلى الله ! – حتّى في عبادتهم. ذلك أنّهم كانوا في حجّهم يطوفون بالكعبة، عُراة رجالا ونساء :

"*وإذا فعلوا فاحشة، قالوا : وجدنا عليها آباءنا. والله أمرنا بها! قُلْ : إنّ الله لا يأمر بالفحشاء. أتقولون على الله ما لا تعلمون؟*" (الأعراف، 7 : 28).

لا جدال في أنّ تقليد الآباء والأجداد، والتكيّف بالبيئة، من طبيعة الإنسان. هذا من ناحيّة. ومن ناحيّة أخرى، فإنّه من المُسَلّم به، تسليما قاطعا عامّا وشاملا، في دماغ أرجح الناس عقلا وألمعهم ذكاء، كما في دماغ أبسطهم فِكْرا، إلى حدّ البهامة والغباوة المُطْلقة والحُمْق المُرَكّب، بلا فلسفة عِلمية، وبلا تفلسف بدائي طفولي، أنّه لا تُبْلَغ الحقيقة أيضا بالتكيّف البيئي والتقليد. هذا من تحصيل الحاصل ولا مِراء فيه البتّة.

إنّ قضيّة الحقيقة ليست بسيطة. لقد أنهكت عقول كلّ المفكّرين، من الجاحظ المعتزلي، الذي كان أوّل مَن أثارها، إلى يومنا هذا، مرورا بالغزالي السنّي المتصوّف، الذي قصّ علينا تجربته القاسيّة الأليمة في *المُنْقِذ من الضلال*. وفي النهاية، لم يبلغ الغزالي الاطمِئنان إلاّ بنور قذفه الله في قلبه، كما يقول.

ذلك أنّه، مهما كان التقليد والتكيّيف، ومهما كان الكَبْت والضغط البيئيّ، لا يَسْلَم كلّ ذي عقل، في وقت من الأوقات، من نَخْز الضمير، وممّا يُسَمّي وَسْواس الشيطان، أي من طرح السُؤال : هل أنا أدين حقّا بدين الحقّ؟ فلو شاءت الأقدار أن أولَد باليابان، أو بالغرب المسيحي، أو بأيّ مكان كان غير إسلاميّ، هلْ أكون مُسْلما؟ طَرح هذا السؤال من قَبْلُ، طرحه الجاحظ المُعتزلي. وقلَّ مَن لا يطرحه في وقت من أوقات حياته. وكلّ فرد يخرج منه بوسائله الخاصّة. فهناك في تونس، وعليها نقصر اهتمامنا، مَن ينقلب إلى المسيحيّة، وعدَدُهم بلغ 60.000، وقد يكونون أكثر، وهم في ازدياد مستمر. وهناك، بأعداد غفيرة ومتزايدة بسرعة، مَن يرتدّون، ويفخرون بتحرّرهم من الإسلام ويدعون إلى التحرّر منه، ويكوّنون جمعيّات لتمرير دعواتهم ، حتما خفيّة في الوضع الراهن من حيث هم يُحاكَمون ويسجنون، ونحن نأسف لذلك، أو يهربون. من هذه الجمعيات جمعيّة "المرتدّ

الحرّ"، وجمعية "الأحرار المفكّرين"، وكلّهم ينشطون خاصة على شبكة إنترنت وفي الخفاء.

بقطع النظر عن الاعتقادات التُفاتيّة، أنواع الأديان متعدّدة، وعددُها يزيد اليومَ عن 300 دين، وهي مترشّحة للزيادة كلّ يوم. فالإسلام في هذه الحال، وهو الّذي يعنينا في هذه التذكرة دون غيره، يستوجب حسم قضيّة الحقيقة، كي يصبح الإيمان بأنّ الإسلام، من بين كلّ الأديان المتعدّدة ، هو دين الحقّ إيمانا يقينيا عقلانيّا لا تُزَلزله الشكوك. المسلم لا يسلم من أمرين : مُوَاجهة وَخْزِ ووَسْوَسة ضميره ؛ ومواجهة غيره الذي يخالفه في اعتقاده ؛ وكلاهما يتظاهران عليه لبعث الشّكّ والبلبلة والحيرة في قلبه. غير أنّه في النهاية يتجاوز مرحلة الشك، وبعد تفكير وتدبّر عقلاني، يبلغ الإيمان، إيمانا يقينيّا ثابتا راسخا، مبنيّا على العقل والعقلانيّة وعميق التدبّر، بأنّ الإسلام هو دين الحقّ حقّا.

المسلم، إذا ما كان مسلما واعيا، وتجاوز التقليد العائلي ومُجرّد التكيّف (conditionnement) الاجتماعي، لا بدّ من أن يطرح قضيّة الحقيقة. وهذا ما جعلنا نطرحها في أوّل هذه التذكرة. ذلك لِأنّ كلّ إيمان، مهما كان نوعه، يستوجب بطبعه أن يبدأ بطرحها وحسمها، إذ الإيمان هو إيمان بالحقيقة، وإيمان بامتلاكها، لا في ذاتها (En soi)، لكن في صفاتها، أي بالنسبة لطالبها (Pour soi). وإذا ما كانت الحقيقة حقّا بلا منازع فيها، لا يمكن إلاّ أن تكون واحدة، إذ مَنطقيّا وعقلانيّا، إذا ما كانت حقا هي الحقيقة، لا يمكن أن تكون حقائق متعدّدة. فإذا ما كانت مُتَعَدِّدة، فهذا ما يُقَوِّض وجودها من قاعدتها، وتصبح نِسْبِيّة، وهميّة، لا واقعيّة لها، وينجرّ عن ذلك أنّه لا وجود لها أصلا، ولا وجود لمَن يمتلكها. إذ كلّ فَرْد يمكن له أن يسمّيّ حقيقة ما يتوهّمه، أو حتى ما يحلو له، وإذا ما تغيّر ذوقه، يذهب إلى مغازة الحقائق، وحَسَبَ موضَة الوقت يشتري حقيقة جديدة.

السؤال هو : هل هناك وجود للحقيقة؟ قلنا فيما سبق نعم. وهل الإنسان يستطيع إدراكها وامتلاكها؟ المسلم، بعد تحقيق وتمحيص وعميق نظر في قضيّة الحقيقة من كلّ جوانبها، يقول أيضا نعم، وأنّه يقينيّا يملكها.

المسلم، كغيره من البشر، بدين أو بغير دين، ينشأ أوّلا مُسلما تقليديّا، تقليدا لآبائه وأجداده، متكيّفا ببيئَتِه. وقلنا إنّه ليس هكذا تُدْرك الحقيقة. هذا أمرٌ فرغ منه الحكيم واستقصاه، لا يختلف فيه إثنان ولا يطناطح فيه عَنْزان. فالمسلم إذن، لايصبح مسلما حقا، يعتقد يقينا راسخا أنّه يدين بدين الحقّ ويملك الحقيقة، إلاّ بعد إعادة النظر في تُراثه، وطلب الحقيقة بعقله وبكلّ مداركه، طلبا حثيثا صادقا، يبلغ به إلى الاطمئنان[33]. وذلك لا يكون حتما إلاّ بعد *تجاوزه عقبة قضيّة الحقيقة بنجاح*.

---

[33] نُحيل على مؤلفنا : *ليطمئنّ قلبي . قضيّة الإيمان* ، سراس للنشر ، تونس ، 2007 . ترجمه إلى الفرنسيّة د. محمّد صالح بربوش ،

في كلّ ما تقدّم من هذا الفصل، طرحنا قضيّة الحقيقة من كلّ جوانبها، طرْحا فيه عرض ونقد، وذلك ليكون المسلم، من ناحية، مطّلعا على الآراء والمواقف المختلفة، ومن ناحية أخرى، ليكون هكذا على بيّنة من أمره، ليكون على بيّنة من الدواعي الّتي تجعله متوكّدا تأكّدا منطقيّا عقلانيّا يقينيّا من أنّه يدين بدين الحقّ ويملك الحقيقة. الإسلام ليس بدين من أديان الأسرار (mystères) كالمسيحيّة، وليس بدين مَبْنِيّ على المعجزات الّتي تُعجز العقل وتصعقه وتسحقه كي تُرغمه على الإيمان. القرآن غلق عهد الفكر السحري (magique)، وفتح عهد الحداثة والفكر العقلاني. في هذا العهد بلغت البشريّة درجة من النضج الفكري جعلتها ترى في المعجزات أدلّة لا تدعو إلى التصديق بل إلى التكذيب. يقول الله : "*وما منعنا أن نُرسل بالآيات إلاّ أن كذّب بها الأوّلون*" (الإسراء، 17: 59).

في هذا العهد الإنسان أصبح هو المعجزة. المعجزة هي العقل الّذي وهبه الله للإنسان، كي به يُدرك الآيات عندما يتدبّر كلامه، وبه يحيط "*بشيء من علمه*" (البقرة،2 : 255) في حدود ما شاء. بالعقل يخترق اليوم الإنسان الفضاء، وبه يصنع المعجزات الّتي كانت تُعجز مَن عاشوا في عهد الفكر السحري. أصبح الإنسان اليوم يُحقق ما كان يحلُم به سليمان، وما أظنّ قصتّه إلاّ إنباء بما يحصُل اليوم. أصبح الإنسان يَنْقُل وينتقل بسرعة السمع، وعِفْريته من جنِّ الطائرات؛ ويسمع ويرى بسرعة النور؛ وسخّر لنفسه طاقة الريح، وموج البحر، وحرارة الشمس؛ ولا شكّ أنّه سيُسَخّر ما لا نعلمه اليوم. وذلك لأنّ الله سخّر له "*ما في السماوات وما في الأرض جميعا.*" يقول الله :

" *حم. تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم. إنّ في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين. وفي خلقكم وما يَبُثّ من دابّة آيات لقوم يُوقنون. واختلاف الليل والنهار، وما أنزل الله من السماء من رزْق فأحيا به الأرض بعد موتها، وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون. تلك آيات الله نتلوها عليك بالحقّ. فبأيّ حديث بعد الله وآياته يُؤمنون؟ ويل لكلّ أفّاك أثيم ! يسمع آيات الله تُتلى عليه، ثمّ يُصِرّ مستكبرا كأنْ لم يسمعها. فبشّرْه بعذاب أليم. وإذا عَلِم من آياتنا شيئا اتّخذها هُزُوا . أولائك لهم عذاب مهين. من ورائهم جهنّم، ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئا، ولا ما اتّخذوا من دون الله أولياء، ولهم عذاب عظيم. هذا هُدىً ! والّذين كفروا بآيات ربّهم، لهم عذاب من رجْز أليم. الله الّذي سخّر لكم البحر لتجْري الفُلك فيه بأمره، ولِتبْتَغوا من فضله، ولعلّكم تشكرون ! وسخّر لكم ما في السماوات، وما في الأرض، جميعا منه. إنّ في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكّرون. قلْ للّذين آمنوا : يغفروا للّذين لا يرجون أيّام الله ! لِيَجْزِيَ قوما بما كانوا يكسبون. مَن عَمِل صالحا فلنفسه، ومَن أساء فعليها، ثمّ إلى ربّكم تُرْجَعون*" (الجاثيّة، 45 : 1- 15).

الآن نعيد السؤال : أين الحقّ؟ الحقّ يجده، بدعوة من الله، القوم الّذين *يعقلون* والّذين *يتفكّرون*، في تدبّر الآيات التي بَثّها الله في الكون جميعا، " *في السماوات والأرض*"، وفي خلقنا، بما في ذلك عُصَيْبِنات دماغنا التي تجعل منّا قوما *يعقلون* و *يتفكّرون*، وفي ما بثّ الله " *من دابّة*"، وبذلك التدبّر كلّ إنسان مُؤَهّل مبدئيّا ليبلغ بنفسه ولنفسه اليقين أنّ القرآن هو الحقّ من ربّنا بلا امتراء فيه (البقرة، 2 : 147 ؛ آل عمران، 3 : 60 ؛ الأنعام، 6 : 114 ؛ يونس، 10 : 94 هود، 11 : 17). وكلّ ذلك بدون إكراه، بحيث ليس من الحتمي أن يبلغ كلّ إنسان نفس اليقين :

"*وليعلم الذين أوتوا العلم أنّه الحقّ من ربّك فيؤمنوا به، فتُخْبِتَ له قلوبهم. وإنّ الله لَهَادِ الذين آمنوا إلى صراط مستقيم. ولا يزال الّذين كفروا في مِرْيَة منه، حتّى تأتيهم الساعة بغتة، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم*" (الحجّ، 22 : 54 – 55).

حيث أنّ الإيمان حريّة حقيقيّة، لا وَهْمَ حريّة تُخفي وراءها مَصيرا مُقدَّرا سَلَفا (une prédestination déterminée a priori)، مكتوبا مَثَلا في آدِيَان (ADN) كلّ إنسان مُنذ يولد، فالعِلم والعقل والتفكير، مهما كانت أدلّة وبراهين الآيات واضحة ومقنعة، لا تَضمَن حَتْما وآليا بُلوغ الإيمان. "*الّذين أوتوا العِلم*"، جميعهم بصدق وإخلاص سريرة ونيّة، فريقان : فريق تُخْبِتُ قلوبهم إلى الإيمان، " *وإنّ الله لَهَادِ الّذين آمنوا إلى صراط مستقيم.*" وفريق قلوبهم وعِلمهم وعقلهم وتفكيرهم تنتهي بهم إلى الكُفْر، " *ولا يزال الّذين كفروا في مِرْيَة*" من كتاب الله وما بَثّ فيه من الآيات. وهنا تعترضنا وتفرض نفسها حتما قضيّة الهداية والضلال، وسنطرحها في أوّل الفصل التالي. لكن قبل ذلك يُلِحّ علينا من جديد ويُلاحقنا السؤال أين الحقّ، حتى نجيب عليه جواب " *الّذين أوتوا العِلم*"، وهداهم الله " *إلى صراط مستقيم.*" يقول لنا الله :

"*وما كان الناس إلاّ أمّة واحدة، فاختلفوا. ولولا كلمة سبقت من ربّك، لقُضِيَ بينهم فيما فيه يختلفون*" (يونس، 10 : 19).

الحقّ نجده في دين آدم، وهو ديننا، نجده في ذُرِّيته عندما كان الناس أمّة واحدة، نجده كما احتفظ عليه البيقمِي في أوغال إفريقيا الوسطى، وإينكا البيرو في أميركا على ساحل المحيط الهادي :

Allah, sous le nom de Khmvoum, était dans les cœurs des Pygmées d'Afrique qui le priaient ainsi:
«Khmvoum, ô Khmvoum, tu es le Maître.
Ô Créateur, le Maître de Tout,
Maître de la forêt, Maître des choses,
Maître des hommes, ô Khmvoum,
Et nous, les petits, nous sommes les sujets.
Maître des hommes, ô Khmvoum,
Commande, ô Maître de la vie et de la mort,
Et nous obéirons[34]»

الله الذي كان
يسمّيه بيقمِي إفريقيا خُمْفوم، كان في قلوبهم، وكانوا يبتهلون إليه هكذا :
"خُمْفوم، يا خُمْفوم، أنت المَولى.
يا خالق، يا مولى كلّ شيء،
مولى الغاب، مولى الأشياء
مولى الناس، يا خُمْفوم،
ونحن، الصغار، نحن العباد.
مولى الناس، يا خُمْفوم،
مُرْ، يا مولى الحياة والموت،
ونحن نطيع

Allah, sous le nom de Viracocha était dans les cœurs des Incas du Pérou qui l'évoquaient ainsi.
«Ô Viracocha, Seigneur de l'Univers,
Que tu sois mâle,
Que tu sois femme,
Seigneur de la reproduction,
Où que tu puisses être,
Seigneur de divination,
Où es-tu ?
Tu peux être en haut,
Tu peux être en bas,
Ou peut-être alentour,
Avec ton splendide trône et ton sceptre !
Dieu, écoute moi !
Du haut du ciel
Où peut-être tu es,
De la mer là-bas
Où peut-être tu es,
Créateur du monde,
Faiseur de tous les hommes,
Seigneur de tous les seigneurs,
Mes yeux m'abandonnent
Par désir de te voir,
Par désir de te connaître
Puissé-je t'admirer,
Puissé-je te connaître, [...]
Puissé-je te comprendre !
Tourne donc ton regard sur moi,
Puisque tu me connais[35] !»

الله الذي يسمّيه إنْكا البيرو فيراكوشا، كان في قلوبهم، وكانوا يبتهلون إليه هكذا :
يا فيراكوشا، رَبّ العالَم،
أتكون ذكَرا،
أتكون أنثى،
رَبّ الإخصاب،
حيث ما تكون،
رَبّ الألوهيّة،
أين أنتَ ؟
قد تكون في العُلى،
قد تكون أسْفَل،
أو لعلك في الجوار،
مع عرشك البَرّاق والصَوْلجان
يا الله اصغ إلي
من فوق السماء
حيث قد تكون
من البحر هناك
حيث قد تكون،
يا خالق الكون،
مُنْشِئ كلّ الناس،
رَبّ كلّ الأرباب،
عُيُوني تُفارقُني
لِوَجْدِي أن أراك،
لِوَجْدِي أن أعرفُك.
عساني أن أعْجبَ بك،
عساني أن أعرفك، [...]
عساني أن أدْرِكك !
حَوِّل نظرك نَحوي،
حَيث أنك تعرفني !

[34] Citée par A. Di Nola, dans *Le Livre d'or de la prière*, Paris, s. d. , Marabout, p. 13-14.
[35] *Ibidem.*

أين الحقيقة ؟

والآن، بعد كلّ ما تقدّم من التفاصيل، جاء الوقت كي نختم : أين الحقيقة ؟ الحقيقة في الفِطرة التي فطر الله عليها كلّ إنسان، وأخذ عليها ميثاقه، وأشهده عليها كما ورد في الآية المعروفة بشهادة الذرّ"وقد تقدّم ذكرها. الحقيقة في قلب الإنسان الأوّل العاقل الذي كان، منذ 100.000، يدفن موتاه بطقوس دينيّة تدلّ على أنّه كان يُؤمن بالله ويُؤمن بالبعث، الإنسان الأوّل العاقل الذي سمّاه الله ونسمّيه آدم، لأنّه خلقه من أديم الأرض وطينها كي يكون مادّةمنها وثيق الاتّصال بها، ونفخ فيه من روحه كي يكون في نفس الوقت على اتّصال وثيق معه لا ينفصم، يستمسك "*بالعروة الوُثقى لا انفصام لها والله سميع عليم*" (البقرة، 2 : 256)، يستمسك "*بالعروة الوُثقى*" مهما عصفت به رياح الطاغوت :

"*الله وَلِيُّ الذين آمنوا، يُخرجهم من الظُلُمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يُخرِجونهم من النور إلى الظلمات*" (البقرة، 2 : 257).

وهكذا جعل الله الإنسان وثيق الصِلة بالأرض يُصلحها، و وثيق الصِلة به، وإليه الرُجوع. أين الحقيقة ؟ الحقيقة في قلب آدم بفِطرته التي فطره الله عليها عندما ارتقى به من الحيوانيّة التي تربطه بأديم الأرض، فبلغ الروحانيّة التي تربطه بروح الله، فوجد الله في قلبه، وبقيت هذه الحقيقة الفِطريّة في قلوب ذُرِّيته بفطرتهم، في قلوب البيقمي، وفي قلوب الإينكا على السواء، مهما تباعدت الشُقة بينهم. وعمل إبليس، عَدُوّ الإنسان ومُنافسه، عمله، مُتوجّها بخطابه إلى الله الذي فضّل الإنسان عليه واتّخذه خليفة في الأرض :

" *قال : فَبِما أغْوَيْتني، لأقعُدَنّ لهم صِراطك المُستقيم. ثمّ لآتِيَنّهم من بين أيديهم ومن خَلفهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم، ولا تَجِدُ أكثرهم شاكِرين*" (الأعراف، 7 : 17).

وهكذا، بعدما كان الناس أمّة واحدة بفِطرتهم، حدث ما حدث من خروج الأكثرين من ذُرِّيّة آدم عن الصِراط المُستقيم، وكان الله مع ذلك، فوْرَما اعترفوا بأنّه ربّهم وأخذ شهادتهم على أنفسهم بذلك، توجّه إليهم بهذا التحذير:

"*أن تقولوا يوم القيامة : إنّا كنّا عن هذا غافلين ؛ أو تقولوا : إنّما أشرك آباؤنا من قَبْلُ، وكنّا ذُرِّيّة من بعدهم. أفتُهْلِكنا بما فعل المُبطلون !*" (الأعراف، 7 : 172 – 173).

فلم ينفع التحذير، ودخل الأكثرون من ذُريّة آدم في مَتَاهات الضلال. فنشأ الاختلاف بكلّ **أنواعه**، لا يَقِلّ الاختلاف بين المعتقدين، مِمّا هو عليه بين الماديّين (matérialistes). وكلّ ذلك مقصود، باختيار مُسَبَّق من الله، بكلمة سبقت منه عندما خطّط الكون الذي وضعنا فيه. ذلك هو وضع الإنسان، وسيتواصل هذا الوضع إلى نهاية البشريّة. وليس لنا الاختيار مهما حيّرنا هذا الوضع:

"*وما كان الناس إلاّ أمّة واحدة. فاختلفوا. ولو لا كلمة سبقت من ربّك، لَقُضِيَ بينهم فيما فيه يختلفون*" (يونس، 10 : 19). "*ولو شاء ربّك لجعل الناس امّة واحدة. ولا يزالون مُختلفين. إلاّ مَن رحِم ربّك. ولِذلك خلقهم . وتمّت كلمة ربّك : لأملأنّ جهنّم من الجِنّة والناس أجمعين*" (هود، 11 : 118 – 119).

لِماذا كلّ هذا ؟ السؤال مُحْرِج، حيّر عقول المؤمنين كلّهم على اختلاف أديانهم، ولم يجد له أيّ عقل جوابا مَرْضيا عقلا ومنطقا وعقلانيّة. كلّ ما في الأمر هو أنّ الله يعدنا بالجواب عندما نعود إليه، ولنا إلى ذلك عود عندما نطرح قضيّة الهداية والضلال في الفصل المُوالي.

إذن، "*وما كان الناس إلاّ أمّة واحدة*"؛ "*ولو شاء ربّك*" لأبقاهم "*أمّة واحدة*"، وما كان لإبليس لِيَغْويهم. لكن كلمة سبقت من الله، فاختلفوا، "*ولا يزالون مُختلفين.*" فأرسل الله المرسلين لِيذكّروا الناس بما نَسُوه من الفِطرة، ومِمَن أرسل إبراهيم، وأتاه صُحُفا لم يبلغنا منها شيء ؛ وأرسل موسى، وأتاه التوراة ؛ وأرسل عيسى وأتاه الإنجيل. ودخل التحريف على التوراة والإنجيل. فأرسل الله محمّدا وأنزل عليه القرآن، ومن أسمائه الذكرى والتذكرة، لأنّه يُذكّر بالفطرة وبما سبقه من كُتُب مُنزّلة، ويُسَمّى أيضا الفُرْقان لِأ نّه يفرق بين الحقّ والباطل. يقول الله :

"*آلم. الله لا إله إلاّ هو، الحَيّ القيّوم. نزّل عليك الكتاب بالحقّ، مُصدّقا لما بين يديه. وأنزل التوراة والإنجيل، من قَبْلُ، هُدى للناس، وأنزل الفُرقان. إنّ الذين كفروا بآيات الله، لهم عذاب شديد، والله عزيز ذو انتقام*" (آل عِمران، 3 : 1 – 4).

دخل التوراة والإنجيل التحريف، واليوم كلّ المحقيقين يعترفون بذلك. ولذلك من أسماء القرآن الفُرقان، لأنّه يَفرق فيهما بين الصادق والمحرّف. والله نبّه أهل الكتاب إلى ذلك ووجّه لهم هذه الدعوة التي لا تزال قائمة :

"*قُلْ : يا أهل الكتاب ! تَعَالوا إلى كلمة سَوَاءٍ بيننا وبينكم : ألاّ نعبد إلاّ الله ؛ ولا نُشرِك به شيئا ؛ ولا يتّخذ بعضُنا بعضًا أربابا من دون الله. فإنْ تَوَلّوا، فقولوا : اشْهَدوا بأنّا مُسلمون*" (آل عِمران، 3 : 64).

أنا أشهد بأنّني مُسلم، وذلك، كما تقدّم، *بعدما تجاوزت عقبة قضيّة الحقيقة بنجاح*. أنا مسلم بعدما حاورت أهل الكتاب حوارا طويلا مُعمّقا طال السنين الطوال[36]، أنا مسلم لِأنّني طَلَبْتُ الحقيقة[37]، وفكّرت في كلّ المواقف منها في كلّ الاعتقادات، في كلّ الأديان، وقارنت، فخرجت من ربقة التقليد، واضطلعت بنفسي اضطلاع الطلاع وعِلم ونَقْد ودراية. طبعا أنا بَشَرٌ ككلّ البشر، ولا يوجد بشر لا يعتقد أنّ ما يعتقده هو الحقّ، وإن كان على ضلال. الفارق هو أنّ حُجّتي عقلانيّة لا ميثولوجيّة (mythologie) فيها، كما هو الشأن في المسيحيّة على الخصوص، والقول بأنّ الإله واحد في ثلاثة (Trine) : الأب والابن وروح القدس. فيكون هكذا يَسوع (Jésus) في نفس الوقت : هو الإله، وابن الإله، وابن أمّ الإله. ومن حيث هو الإله، فهو الّذي أخْصَبَ أمّه ماريّة، التي تُسمّى عقيدة أمّ الإله، رَفَعها ابنُها يسوع إلى السماء حيّة عندما صعد إليها، وكما هو جالس جَسَدِيّا إلى جانب أبيه، أجلسها كذلك على يمينه، وسَمّاها ملكة الكون، وهي بصفتها هذه تزور من حين إلى حين الأرض كما يعلم الجميع، وكما شاهدها مرارا وتكرارا الملائيون من المسيحيّين، وهم عُقلاء وحُكماء لا يكذبون. فإذا ما كان هذا الدين يُرضي إخواننا المسيحيّين، ويعتبرونه الحقّ اليقين، فأنا أبارك لهم فيه، وأتركه لهم بكَرم وسخاء، ولِمَن ينقلب إليه من التونسِيّين الّذين نشؤوا مسلمين. إنّني لم أبلغ اليقين أنّني لست على ضلال، إلاّ بعد الطلاع وعِلم ونَقْد ودراية على هذا وما هو من قبيله. " *وعلى الله قصْدُ السبيل، ومنها جائِرٌ، ولو شاء لهداكم أجمعين*" (النحل، 16 : 9). الإنسان لُغز بتناقضاته بين الهداية والضلال. مَيْزَة الإنسان هو أنّه الكائن الوحيد فوق الأرض الّذي، بفِطْرته على اتّصال حميم ودائم مع الله. غير أنّه قد يرفض هذا الاتّصال إلى حدّ القطيعة، ويتيه في شتّى المتاهات. وقد يقوى، عند الصوفي، هذا الاتّصال إلى حدّ أن ينقطع بكلّيته إلى الله، فيفقد إدراك ذاته، ويُصبْح لا يُدرك إلاّ ذات الله، فتجري على لسانه الشطحات (apophtegme) الّتي يُسِيء فهمها غيره، وقد يكون ذلك عن قصْد، فيقول ما قال الحلاّج (244 – 309 / 858 – 922) : " *ما في الجُبّة إلاّ الله*"، فاتُّهم بالحُلول ومن أجل ذلك صُلِب.

تدبّرت القرآن كما يأمُرني الله. وبعد التفكير بعقل وعقلانيّة، كما يأمُرني الله، في الآيات المبثوثة في الآفاق وفي أنفسِنا والّتي العلوم الدقيقة تقرأها اليوم بأكثر فأكثر دقّة، حَصُل الاقتناع واليقين، اقتناع ويقين من جديد، أنّ القرآن هو "*الحقّ اليقين*"، وأنّه "*تنزيل من عزيز حكيم*"، أحكم كلّ شيء خلقه، " *له أسلمَ مَن في السماوات والأرض، طوْعا*

---

[36] أحيل على *Penseur libre en Islam*, Cérès, Tunis, 2013 ; *Histoire du Christ* , Tunis, 2011 ; *A Benoît XVI*, Tunis, 2011

[37] أحيل على لِيطمئنّ قلبي، سيراس، تونس، 2007 ؛ ترجمة فرنسيّة، *Afin que mon cœur se rassure*, Nirvana, Tunis, 2010

وكَرْهًا، وإليه يُرْجَعون" (آل عمران، 3 : 38). أنا على دين آدم، دين الفطرة، الّذي أجده في قلب البيقمي وقلب الإينكا. أنا أقول ما أمر الله به رسوله أن يقول :

" *قُلْ : آمنّا بالله، وما أنزل علينا، وما أنزل على إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط. وما أوتِيَ موسى، وعيسى، والنبيّون من ربّهم، لا نُفَرِّق بين أحد منهم، ونحن له مُسْلِمون. ومَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دينا، فلن يُقْبَل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين*" (آل عمران، 3 : 84 – 85).

" *قُلْ : إنّني هداني ربي إلى صراط مُستقيم، دينا قِيَما، مِلّة إبراهيمَ، حَنيفا وما كان من المُشركين. قُلْ : إنّ صلاتي ونُسُكي، ومَحْيايَ ومَماتي، لله ربّ العالمين. لا شريك له. وبذلك أُمِرْتُ، وأنا أوّل المسلمين. قُلْ : أغير الله أبغي ربّا، وهو ربُّ كلّ شيء. ولا تكسِبُ كلّ نفس إلاّ عليها، ولا تزرُ وازرَة وِزْرَ أخرى، ثمّ إلى ربِّكم مَرْجِعكم، فيُنبِّئُكم بما كنتم فيه تختلفون. وهو الّذي جَعَلكم خلائف الأرض، ورَفَعَ بَعْضَكم فوق بعض درجات، لِيَبْلوكم في ما آتاكم. إنّ ربّك سريع العقاب، وإنّه لَغفور رحيم* " (آخر سورة الأنعام، 6 : 161 – 165).

" *ومَن أحسن دينا مِمَّن أسلم وجهَه لله وهو مُحْسِن، واتّبع مِلّة إبراهيمَ حنيفا. واتّخذ الله إبراهيم خليلا. ولله ما في السماوات، وما في الأرض، وكان الله بكلّ شيء مُحيطا*" (النساء، 4 : 125- 126).

" *إنّ الساعة لآتية لا ريب فيها، ولكنّ أكثر الناس لا يؤمنون. وقل ربُّكم : ادْعوني، استجبْ لكم. إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي، سيدخلون جهنّم داخرين. الله الّذي جعل لكم اللّيل لتسكُنا فيه، والنّهار مُبْصِرا. إنّ الله لذو فَضْل على النّاس، ولكنّ أكثر النّاس لا يشكرون. ذالكم الله ربّكم، خالقُ كلّ شيء، لا إله إلاّ هو، فأنّى تُؤفَكون؟ كذالك يُؤفَك الذين كانوا بآيات الله يَجْحَدون. الله الّذي جعل لكم الأرض قرارا، والسماء بِناء، وصَوّركم فأحْسَن صُوَرَكم، ورزقكم من الطيّبات. ذالِكم الله ربُّكم، فتبارك الله ربُّ العالمين ! هو الحَيُّ، لا إله إلاّ هو، فادْعوه مُخْلِصين، له الدّين. الحمْدُ لله ربّ العالمين ! قُلْ : إنّي نُهيت أن أعبُد الذين تَدْعون من دون الله، لَمَّا جاءَني البيّنات من ربّي، وأمِرْت أن أسْلِم لِربّ العالمين*" (غافر، 40 : 59 – 66).

" *هو الله، الّذي لا إله إلاّ هو، عالِم الغَيْب والشهادة. هو الرحمان الرحيم. هو الله، الّذي لا إله إلاّ هو، المَلِك، القُدّوس، السلام، المُؤْمِن، المُهَيْمِن، العزيز، الجَبّار، المُتَكبِّر. سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يُشْركون ! هو الله، الخالق، البارئ، المُصَوّر. له الأسماء الحُسْنى. يُسَبّح له ما في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم*" (الحشر، 59 : 22 – 24).

هذا هو الإلهنا، "*هوالرحمان الرحيم.*" هو إله الرحمة والمحبّة، يحبّ الإنسان أكثر من محبّة الأمّ لرضيعها. هذا الإله لم أجد له، في أيّ كتاب من الكتب المقدّسة أو غيرها، تعريفا لِنفسه بنفسه أضفَى وأشمل مِمّا ورد في الآيات أعلاه، وفي غيرها من القرآن، وسنعود إلى بعضها في القسم الموالي.

وفي خاتمة المَطاف، وبكلّ ما استطيع من موضوعيّة، أقول ما يقول الله : "*وَمَن أحْسَنُ دينا، مِمَّن أسلم وجهه لله، وهو مُحْسِن، واتّبع مِلّة إبراهيم حنيفا؟ واتّخذ الله إبراهيم خليلا*" (النساء، 4 : 125). الإسلام أحسن الأديان كلّها. هو وَحْدَه دين الحقّ والحقيقة. والمسلم، دون غيره يملك الحقّ والحقيقة. وإليها يدعو بالعقلانيّة وبالقول الحَسَن :

"*نُزُلا من غفور رحيم. ومَن أحْسَن قولا، مِمَّن دعا إلى الله، وعَمِل صالحا، وقال إنّني من المسلمين؟ ولا تستوي الحَسَنَة ولا السيّئة. ادْفَعْ بالّتي هي أحسن. فإذا الّذي بينك وبينه عداوة كأنّه وَلِيّ حميم. وما يُلَقّاها إلاّ الّذين صبروا. وما يُلَقّاها إلاّ ذو حظّ عظيم*" (فصّلت، 41 : 33 – 35).

أمّتنا لها رسالة : تبليغ دين الحقّ والحقيقة بالعقلانيّة إلى الناس كافّة وجميعا، وإليهم أرْسِل خاتم الأنبياء والمرسلين بنصّ القرآن : "*وكذالك جعلناكم أمّة وسَطا، لِتكونوا شُهَداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شَهيدا*" (البقرة، 2 : 143). ونحن على ذلك نشهد ونُبلّغ. وهذه غايتنا من هذه التذكرة. إلآهنا رحمة ومَحَبّة. لكن، لِمَ لَمْ يستجب كلّ الناس إلى دين الحقّ والحقيقة؟ تلك هي القضيّة المحيّرة.

إلاهنا مُتعالي وكامن

القرآن مُستويان.

نجد فيه الإله المُتعالي (transcendant)، الصمد الذي يصمد أمام كلّ إدراك "*لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار*" ؛ ونجد فيه الإله الكامن (immanent)، القريب الذي هو أقرب من الإنسان من حبل الوريد. الإله المُتعالي يتحدّث لغة ضرب الأمثال، التي تكتسي في القرآن أهميّة بالغة، فتأتي في 11 آية، نذكر منها :

ضرب الأمثال.

بقطع النظر عن علم الكلام الذي ليس هذا محلّه، هنا يجدر أن نغتنم الفرصة، بالاعتماد على أوّل الآية الأخيرة التي سبق ذكرها، كي نَنْفِي نفيا قطعيّا مَا تجذّر في عقول المسلمين وفي قلوبهم، تحت تأثير القُصّاص وبُسَطاء العلماء، من أنّ كلّ ما ورد في القرآن من وَصْف الجنّة والنار وصفا حِسّيّا، مُرَغّبا تارة ومُرْعِبا أخْرى، يجب أخْذُه على وجهه حَرْفيّا كحقائق ثابتة مَلموسة، لا تأويل لها. هنا يجب التنبيه بإلحاح وتأكيد شديد، أنّ كلّ ما أتى في القرآن من أوصاف الجنّة والنار، إنّما هو من باب ضرب الأمثال، بنَصّ القرآن ذاته :

" *ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كلّ مثل، فأبى أكثر الناس إلاّ كُفورا* " (الإسراء، 17 : 89).

"*ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كلّ مثل، وكان الإنسان أكثرَ شيئ جَدَلا* " (الكهف، 18 : 54)

" *ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كلّ مثل. وَلـئِنْ جِئْتَهم بآية، ليقولنّ الذين كفروا : إنْ أنتم إلاّ مُبْطِلون. كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون*" (الروم، 30 : 58 – 59).

"*ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كلّ مثل، لعلّهم يتذكّرون*" (الزمر، 39 : 27).

" إنّ الله لا يستحي أن يضرب مثلا مّا، بعوضَة فما فوقها. فأمّا الذين آمنوا، فيعلمون أنّه الحقُّ من ربِّهم. وأمّا الذين كفروا، فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلا؟ يُضِلّ به كثيرا، ويهدي به كثيرا. وما يُضِلّ به إلاّ الفاسقين. الذين يَنْقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصَل، ويُفسدون في الأرض. أولائك هم الخاسرون" (البقرة، 2 : 26 – 27).

" ألَمْ تَرَ كيف الله ضرب مثلا؟ كلِمة طيّبة، كشجرة طيّبة. أصلها ثابت، وفَرْعُها في السماء، تُؤْتي أكُلها كلّ حين بإذن ربّها. ويضرب الله الأمثال للناس، لعلّهم يتذكّرون. ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة، اجتُثّت من فوق الأرض، ما لها من قرار. يُثبِّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة. ويُضِلّ الله الظالمين، ويفعل الله ما يشاء" (إبراهيم، 14 : 24 – 27).

" مَثَل الجنّة التي وُعِدَ المُتّقون : فيها أنهار من ماء غير آسِن، وأنهار من لَبَنٍ لم يتغيّر طعمُه، وأنهار من خَمْر لذّة للشاربين، وأنهار من عسل مُصَفًّى. ولهم فيها من كلّ الثمرات. ومَغفرة من ربّهم.

[مثل جهنّم] *كمَن هو خالد في النار : وسُقوا ماء حَمِيما، فَقَطَّع أمْعاءَهم"* (مُحَمَّد، 47 : 15).

وذلك لاستحالة إدراك مصير الإنسان في الآخرة على حقيقته. كلّ ما يمكن أن نُدْركه هو أنّ الإنسان، في حياته الدنيا، يُمكن له، بكَسْبِه لِنفسه أو عليها، أن يكون من *الخاسرين* (ورد في ذلك ما يزيد عن 50 آية)، أو أن يكون من *الفائزين* (29 آية)، ومن *المُفْلحين* (29 آية)، من دون أن نعرف كيفيّة الخُسْران، والفوز والفلاح على حقيقتها. الأمثال لها دور تَرْبويّ بيداغوجيّ، تبشّر وتنذر بأنجع الوسائل، التي تلائم كلّ العقول على اختلاف قُدُراتها الفكريّة في كلّ زمان ومكان.

الإله المُتعالي كما يصف نفسه في كتابه لا غير.

الله لا نعرفه في ذاته، في ذاته لا يعرف الله إلاّ الله. نجد ذلك في التوراة، كما نجده في القرآن. عندما سأل فِرْعَوْنُ : *" قال فَمَن رَبُّكما ياموسى؟ قال : ربّنا الذي أعطى كلّ شيء خَلْقَه، ثمّ هَدَى"* (طه، 20 : 49 – 50). الآية 50 من الإعجاز. ماذا كُنّا نفهم من هذه الآية حتّى إلى عهد قريب؟ ماذا كُنّا نفهم منها قبل اكتشاف الأدِيان (ADN)، ودوره في هداية كلّ سُلالة من نبات، مُتَطوّر كتطوّر الإنسان، كي تُثمِر ما هو مُبَرْمَج فيها مِن عَلِيٍّ قدير حكيم، وكذلك في كلّ سُلالَة من حيوان عَلِقت في رَحِمِ أنْثى، كي ينشأ منها ما، أو مَن هو مُبَرْمَج فيها أيضا، من إله لا نعرفه في ذاته، وإنّما نعرفه في خَلْقِه بكلّ أنواعه.

لا نعرف الله إلاّ في صفاته، التي أثارت جدلا طويلا عقيما في علم الكلام الذي، في النهاية فرّق الأمّة الواحدة -- التي يُوَحِّدها القرآن حَوْلَ سورة الإخلاص التي هي عقيدتها لا غير، وحَوْلَ العبادة والتُقى، قِبْلتها واحدة -- إلى شَتَاة فِرَق متعادية يُكَفّر بَعْضُها بَعْضا، ويقتل بَعْضُها بَعْضا.

نحن، بلا حاجة إلى عِلم الكلام، لا نَصِف الله، الواحد الأحد الذي ليس كمِثله شيء، إلاّ كما يَصِف نَفْسَه بِنَفْسِه، دائما في لغة ضرب الأمثال، وفي لغة الاستعارات. فهو "*فالق الحَبّ والنوى*" ؛ "*فالق الأصْباح*" ؛ "*هو الذي جعل* [لنا] *النجوم*" ؛ "*وهو الذي* [أنشأنا] *من نفس واحدة*" ؛ "*وهو الذي أنزل من السماء ماء.*" ومع ذلك "*جعلوا لله شُرَكاءَ الجِنَّ وخَلَقهم ! وخَرَقوا له بنين وبنات، بغير عِلم. سُبْحانه ! وتعالى عمّا يصفون.*" (الأنعام، 6 : 95 – 100).

الله ليس كَمِثله شيء، لا نعرفه إلاّ من خِلال خلقه. والناس، بَغْيا منهم "*بغير عِلم*"، اعتقدوا في الجنّ وجعلوا له منهم شُركاء، مع أنّه هو الذي "*خَلَقهم.*" وكذلك "*خَرَقوا له بنين وبنات.*" الله يُنذِرُنا أنّه مُنَزّه عن كلّ وصف تجسيدي، وأنّ كلّ ما يصف به نفسه من أوصاف توهم التجسيد، إنّما هو من باب ضرب الأمثال والاستعارات. فهو الواحد الأحد، الذي نعبده دون سواه من الجنّ والإنس :

"*ذالكم الله ربّكم، لا إله إلاّ هو، خالق كلّ شيء، فاعبدوه، وهو على كلّ شيء وكيل. لا تُدْركه الأبصار، وهو يُدْرِك الأبصار، وهو اللطيف الخبير*" (الأنعام، 6 : 102 – 103).

إلاهنا هو الإله المتعالي (transcendant) عن كلّ وصف حِسِّيّ تجسيدي. فهو يصف نفسَه بقوله : تعالى (16 آية)، والأعلى (9 آيات)، والعلِيّ (7 أيات)، والمتعال في آية واحدة وهي هذه : "*عالِمُ الغيب والشهادة، الكبير المُتَعال*" (الرعد، 13 : 9). ومن الآيات الأخرى في نفس السِياق نذكر :

"*أتى أمر الله! فلا تستعجِلوه، سُبحانه وتعالى عمّا يشركون. يُنزِّل الملائكة بالروح من أمره، على مَنْ يَشاء من عباده، أنْ أنذِروا : أنّه لا إله إلاّ أنا، فاتّقون. خلق السماوات والأرض بالحقّ. تعالى عمّا يشركون !*" (النحل، 16 : 1 – 3).

"*أفحسِبْتُم أنّما خلقناكم عَبَثا، وأنّكم إلينا لا تُرْجَعون ؟ فتعالى الله الملِك الحقّ، لا إله إلاّ هو، ربّ العرش الكريم*" (المؤمنون، 23 : 115 – 116).

" الله، لا إله إلاّ هو. الحَيُّ القَيُّوم، لا تأخذه سِنَة ولا نوم. له ما في السماوات وما في الأرض. مَنْ ذا الذي يشفع عنده، إلا بإذنه ؟ يعلم ما بين أيديهم وما خَلفهم، ولا يحيطون بشيء من عِلمه إلاّ بما شاء. وَسِعَ كُرْسِيُّه السماوات والأرض، ولا يَؤودُه حِفْظُهما. وهو العليّ العظيم !" (البقرة، 2 : 255).

" حم. عسق. كذالك يُوحِي إليك، وإلى الذين من قبلك، اللهُ العزيز الحكيم. له ما في السماوات وما في الأرض. وهو العليّ العظيم" (الشورى، 42 : 1 – 4).

" وهو الذي يَبْدَؤا الخلق ثمّ يعيده، وهو أهون عليه. وله المَثَلُ الأعلى في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم" (الروم، 30 : 27).

نحن نعبد *" العزيز الحكيم"*، *" فالق الحَبّ والنوى"*، *" الذي أنزل من السماء ماء"* واحدا، يُسْقَى به الحبّ والنوى في أرض واحدة، وجعل في أديان كلّ حبّة وكلّ نواة ما يهديها كي تُثمِر ما هو في أديانها لا غير. ومِمّا يصف به نفسه هذا الإله المُتَعالي، "العزيز" القدير على كلّ شيء، "الحكيم" الذي لم يخلق شيئا إلاّ بحكمة وحُسن تدبير، ما يلي زيادة عمّا سبق :

" الله نور السماوات والأرض، مثل نوره كمِشْكاة فيها مِصْباح، المِصْباح في زُجاجة، الزجاجة كأنّها كوكَب دُرِّيّ، يوقَد من شجرة مُباركة، زيتونة لا شَرْقِيّة ولا غربيّة، يكاد زيتها يُضيِء ولو لم تَمْسَسْه نار. نورٌ على نور. يَهْدي الله لنوره مَن يشاء. ويَضرب الله الأمثال للناس، والله بكلّ شيء عليم. في بُيوت، أذِن الله أن تُرْفَع ويُذكَر فيها اسمُه، يُسَبِّح له فيها بالغُدُوّ والأصال، رجالٌ لا تُلهيهم تِجارَة ولا بَيْع عن ذِكْر الله، وإقامِ الصلاة، وإيتاء الزكاة. يَخافون يوما تَتَقلّب فيه القلوب والأبصار. لِيَجْزِيَهم الله أحْسَنَ ما عَمِلوا، ويَزيدَهم من فضله. والله يَرْزُق مَن يَشاء بِغير حِساب" (النور، 24 : 35 – 38).

"سبّح لله ما في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم. له مُلك السماوات والأرض، يُحْي ويُميت وهو على كلّ شيء قدير. هو الأوّل والآخِر، والظاهر والباطن، وهو بكلّ شيء عليم. هو الذي خلق السماوات والأرض في ستّة أيّام، ثمّ استوى على العرش. يعلم ما يَلِج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يَعْرُج فيها. وهو معكم أين ما كنتم، والله بما تعملون بصير. له مُلك السماوات والأرض، وإلى الله تُرْجَع الأمور" (الحديد، 57 : 1 -5).

الإله الكامن كما يصف نفسه في كتابه لا غير.

مادّة كَمَنَ لا توجد في القرآن. غير أنّها توافق مادّة بَطَنَ. الإله الكامن (immanent) هو الباطن الذي معنا أين ما كُنّا. لا شكّ أنّ الإنسان من أعزّ خلق الله عليه :

" ولقد كرّمنا بني آدم، وحملناهم في البرّ والبحر، ورزقناهم من الطّيّبات، وفضّلناهم على كثير مِمّن خَلقنا تفضيلا" (الإسراء، 17 : 70).

الإنسان اضطلع، من تِلقاء نفسه وبكامل الحريّة، بأمانة عزيزة على الله، رفضتها السماوات والأرض والجبال وأشفقن منها. فيه نفخ الله شيئا من روحه، مِمّا جعل الملائكة يسجدون إليه، "إلاّ *إبليس كان من الجِنّ فَفَسَق عن أمر ربّه"* (الإسراء، 17 : 50)، وثار عليه ثورة إبليسيّة أبعدته عنه. ومن معانى بَلَسَ، زيادةً عن اليأس : ثار وابتعد. وإبليس هو عَدُوّ الإنسان بطبعه، فتوعّد بني آدم أنّه سيُقحمهم في ثورته على الله، وعلى اليأس منه والابتعاد عنه، وأنه سيُغوِيّهم أجمعين (الحِجر، 15 : 39). *" ويوم تقوم الساعة يُبْلِسُ المُجرمون"* (الروم، 30 : 12)، أي أنّهم يبتعدون عن الله، ويَيْأسون من رحمته، لأنّهم كفروا به وابتعدوا عنه في الأرض، ورَفَضوا القرب من القريب من الإنسان إلى حدّ أنه نفخ فيه شيئا من روحه، جعله بفطرته، لو اتّبعها، يجد الله القريب منه في قلبه، ويؤمن به ويقترب منه بالطاعات.

القرآن كلّه حوار قريب مع قريب، غير أنّ من الناس من يرفض الحوار ويجادل بالباطل ليدحض به الحقّ (الكهف، 18 : 56 ؛ غافر، 40 : 5). هؤلاء *" صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ، فهم لا يعقلون"* (البقرة، 2 : 171). *" وكان الإنسان أكثرَ شيء جدلا"* (الكهف، 18 : 54). يأتي فعل جادل في 30 آية، بينما لا يأتي فعل حاور إلاّ في ثلاث آيات. هل ذلك لأنّ الإنسان، الّذي غواه الشيطان وأقحمه في ثورته عليه وحمله على إنكاره والابتعاد منه، أصبح أميل إلى التلدّد والمُشاكسة منه إلى الحوار بالمنطق السليم؟ *"فهم لا يعقلون."* فالنُفاتيّ مثلا، المادّي الّذي ينفي وجود الله بالمرّة، أبعدُ خلقه منه، وأقربهم إلى الشيطان : *" ومن الناس مَنْ يُجادل في الله بغير عِلم، ويتّبع كلّ شيطان مَريد"* (الكهف، 18 : 3).

المسلم قريب من الله، وهو في حوار دائم معه أين ما كان، خاصّة في دُعائه وصلواته ونُقاه ومناجاته لربّه ومحبّته المخلصة له. علاقة المسلم بالله، علاقة قرب من القريب، ورجاء بلا قنوط، ولا يأس في رؤوف ودود رحيم، ومحبّة حبيب بحبيب. فإن كان الإله المتعالي يضرب الأمثال للناس لأنّه *"تعالى عمّا يصفون"* (الأنعام، 6 : 100)، فإنّ الإله الكامن يخاطب الإنسان في لغة واقعه المُعاش يوميا، ولا غرابة أنّه، بدافع قربه، يهتم حتّى بجُزْئيات حياته اليوميّة، ولو بما يبدو لنا تافها منها.

" وإذا سألك عبادي عنّي : فإني قريب، أجيب دعوة الداعي إذا دعان. فَلْيستجيبوا لي، ولِيُؤْمنوا، لعلّهم يرشُدون" (البقرة، 2 : 186).
" إنّ ربّي قريب مجيب" (هود، 11 : 61).
" إنّه سميع قريب" (سبأ، 34 : 50).

"*ولقد خلقنا الإنسان، ونعلم ما توسوس به نفسه، ونحن أقرب إليه من حَبْل الوَريد*" (ق، 50 : 16).

الله يعلم أنّ الإنسان، الّذي اضطلع بأمانة تفوق طاقته لولا عون الله له، ضعيف. بدأ أضعف الحيوانات، ورث عن الحيوانيّة غرائز جنسيّة وعُدْوانيّة توسوس له بها نفسه، لا يستطيع دائما زجرها ومغالبتها بنجاح. يقول المعرّي، سجين المَحْبَسين :

يتحارب الطبع، الّذي مُزجَت به * مُهَجُ الأنام، وعَقْلُهم، فَيَفُلُّه

الله ويقول :

"*والله يريد أن يتوب عليكم، ويريد الّذين يتّبعون الشهوات أن تميلوا مَيْلا عظيما. يريد الله أن يُخفّف عنكم. وخُلِقَ الإنسان ضعيفا*" (النساء، 4 : 27 – 28).

الإنسان الّذي بدأ حيوانا، ومَرَّ بكلّ مراحل الحيوانيّة، وإن نفخ الله فيه من روحه محبّة فيه وقُرْبا منه، بَقِيَ حيوانا إلى حدّ بعيد، له شهوات حيوانيّة. فهو مُخَيَّر بين الفجور والابتعاد عن الله إلى حدّ إنكاره كما يفعل المادِيُّ، والتَقْوى اقترابا منه ومَحَبَّة فيه إلى حدّ الفناء فيه ونِسْيان الذات كما يفعل الصوفي، وذلك لأنّه اختار الحريَّة كوَضْع مُمَيِّز له دون غيره من مَخْلوقات فيما بلغه عِلمنا إلى غاية هذه الساعة. يقول الله :

"*ونفسٍ وما سوّاها : فألهما فجورها وتقواها. قد أفلح مَن زكّاها ؛ وقد خاب مَن دسّاها*" (الشمس، 91 : 7 – 10).

كلّ ما يريده منّا الإله الكامن القريب، هو أن يجتهد الإنسان، الّذي خُلق ضعيفا لم يتخلّص من شهوات الحيوانيّة، كي لا يَميل "*مَيْلا عظيما*" إلى هذه الشهوات. أن يميل إليها، فذلك في طبعه، في "*مُهَجُ الأنام*" يقول المعرّي، لا انفلاة منه. يُروَى عن النبيّ، وقوله يؤكّد ما أتى في كتاب الله : "*كلّ ابن آدم خطّاء، وأحبّ الخطّائين إلى الله التوّابون.*" كلّ ما في الأمر هو أن يبذل الإنسان، "*وخُلِقَ الإنسان ضعيفا*"، كلّ ما في وسع نفسه "*الأمّارة بالسوء إلاّ مارحم ربي، إنّ ربّي غفور رحيم*" (يوسف، 12 : 53)، كي لا يَفُلّ الطبعُ العقل، وتبقى الغلبة لِلعقل الّذي في النهاية يُزكّي النفس، ويحفظها مِمَّا يُدَسّيها ومن الخيبة، فتكون الخاتمة الفلاح، وهذا ما يحبّه الإله القريب الكامن في قلب كلّ إنسان بفطرته وبميثاقه الّذي أشهده الله عليه، فشهد. وحتّى إذا ما زلّت القدم بالإنسان، "*إنّ ربّي غفور رحيم*"، وذلك بقربه الطبيعي منه. وأقرب ما يكون الله من الإنسان، فعندما يتخلّى عنه الخلاّن والأحباب، ويأخذ طريقه إليه فريدا نحو الحبيب الأوّل الّذي خلقه فسوّاه، فصوّره على أحسن صورة : "*وصوّركم، فأحسن صوركم*" (غافر، 40 : 64).

قضيّة

الهداية والضلال

الاختلاف، وما يتبعه من تعدّديّة، مَقصود من الله، وهو سِرّه في خلقه.

" *أفلم يسيروا في الأرض، فتكونَ لهم قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها ! فإنّها لا تَعْمَى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور*" (الحج، 22 : 46).

سار قوم في الأرض، كما يأمر الله، فوجدوا الله المكتوب في قلوبهم. وسار آخرون فلم يجدوا سواء المادّة العمياء، لأنّهم يُبصرون بأبصارهم، وقلوبهم عمياء، لما أصابها من مرض الطغيان. والرسول يقول للفريقين بوحي وأمر من ربّه :

" *قد جاءكم بصائر من ربّكم : فمن أبصر فلنفسه، ومَن عَمِيَ فعليها. وما أنا عليكم بحفيظ*" (الأنعام، 6 : 104). "*أفأنت تهدي العُمْيَ، ولو كانوا لا يُبصرون*" (يونس، 10 : 43). " *وما أنت بهادٍ العُمْيَ عن ضلالتهم*" (النمل، 27 : 81).

" *أفأنت تُسْمِع الصُمّ، أو تهدي العُمْيَ !*" (الزخرف، 43 : 40).

وهنا تعترضنا حتما قضيّة الهداية والضلال. فهل هناك إنسان يختار لنفسه أن يكون ضالاّ أعمى؟ هذا مستحيل بالبديهة. لا مناص إذن من طرح قضيّة الهداية والضلال، وإن استعصى حلّها مهما اجتهد المجتهدون في الإسلام، وفي مقدّمتهم المعتزلة، وفي كلّ الأديان، وفيَ كلّ الاعتقادات وفي كلّ الفلسفات بدون استثناء. لا حلّ لهذه القضيّة يحسم الخلاف ويرضي العقل والأخلاق تمام الرضاء. فهي كقضيّة دخول جُزَيْأة (particule) واحدة في ثقبين في نفس الحين والوقت في علوم فيزْياء اللاّمتناهي صِغَرا. الفيزيائيّون يلاحظون ذلك بحكم التجربة والواقع المَلموس، ولا يجدون تفسيرا لهذه الظاهرة الغريبة.

" *فمَن يُرِدْ الله أن يهديَه، يَشْرَحْ صدره للإسلام، ومَن يُرِدْ أن يُضلِه، يجعل صدره ضَيّقا حَرَجا*" (الأنعام، 6 : 125).

وذلك سرّه المُحيّر في خلقه، سِرٌّ لا تفسير له مهما اجتهد المفسّرون في تفسيره، ولا نستطيع سوى التسليم به وتفويض الأمر فيه إلى خالق الخلق الذي *"لا يُسأل عمّا يفعل، وهم يُسألون"* (الأنبياء، 21 : 23).

وكلّ إنسان طبعا حُرّ في أن يأبى التفويض، وفي أن يثور ويغضب ويشتم ويكفر. هل يبلُغ شيئا؟

قضيّة مُحيّرة.

قضيّة تعدّد الاعتقادات والأديان، وما ينجرّ عن ذلك من سعادة وشقاء في الآخرة، قضية مُحَيِّرة، وهي في النّهاية سرّ الله في خلقه. نحن نعمل بقول الله ونقتدي برسوله : نشهد ونبلّغ، ونترك كلّ إنسان حُرّا فيما يختار لنفسه. غير أنّ الحال هو أنّه لا يوجد مَن يختار، عن وعي ودراية، لنفسه الضلال. لا يوجد مؤمن، يُؤمن حَقّا بما يؤمن به، ولا يقول إنّ ما يؤمن به، هو الحقّ بحرف بارزٍ لا حقَّ غيرَه، وهو طريق النجاة والفلاح. هذا هو الواقع، وغيره مستحيل. وإذا ما كان ذلك كذلك، يَنجرّ عن ذلك، ضِمْنيّا وحتما، أنّ ما يقوله ويعتقده مَن يخالفه، باطل. هذا أمر محسوم. إذْ، ما لم يكن ذلك كذلك، يقع كلّ مُعتقد في شيء ما في التـناقض.

لا يستطيع أيّ إنسان واعٍ سليم المدارك أن يقول إنّه على حقّ، وأن يقول في نفس الوقت إن مَن يخالفه ويُناقضه هو أيضا على حقّ. فيصبح الحقُّ يناقض الحقَّ، فيضيع الحقُّ، إذْ الحقُّ واحد أو لا يكون.

وهذا لا يعني، ما لم نقع في النِسْبيَّة (relativisme)، أنّ كلّ إيمان بصِدْق، مهما كان هذا الإيمان، هو حَقّ بالضرورة. قد يكون باطلا، وصاحبه يعتقده الحقّ بحرف بارز لا حقَّ غيرَه. من طبيعة البشر، أن يعتقد بصِدق كلّ بشر أنّ ما يعتقده هو الحقّ ذاته، ومع ذلك قد يكون مخطئا خَطَأً فاحشا وعلى باطل.

فالنضرب مَثَلَ الهندوسي المُعاصر لنا في عصر العِلم والمنطق وغزو الفضاء. فهو ينحت من حجر تمثالا ذا جَسَد واحد تعلوه ثلاث رؤوس، رأس الإله ابْراهْمَا، ورأس الإله فيشْنو ورأس الإله شيفا، ويتّخذه إلها. هذا الإله واحد في أسفله. الهندوسي يعتبر إذن نفسه موحّدا. وهو ثلاثة في أعلاه. فهو إله مُثلّث (Trimurti). ومَن يعبده مُشرك. ونحن نعتقد أنّ الإله المسيحي الثلوثي (Trine) متأثّر به. الفرق بينهما لا يزيد عن الفرق بين الحاجّ موسى، وموسى الحاجّ. كلّ من الإلهين، الهندوسي ونظيره المسيحي، من منظورنا ومهما زعم الفريقان، خُرافي بوضوح بديهيّ. رَغْمَ ذلك الهندوسي والمسيحي كلٌّ منهما يؤمن بأنّ ما يؤمن به هو الحقّ، وكلّ ما يخالفه باطل. ضربنا هذا المثل، وليس هو الوحيد من نوعه، كي نُقيم الدليل على أنّه ليس كلّ إيمان حقّا، من حيث هو إيمان بصِدْق. قضيّة تعدّد

الاعتقادات والأديان، وما ينتج عنها من سعادة أو شقاء في الآخـرة مـن الـمنـظـور الإيماني، قضيّة مُحيِّرة، ماورائيّا مُقْلِقة عقلا وأخلاقا. فما الحيلة ؟ لا حيلة، مهما كان أسفنا لذلك. ذلك وضع الإنسان !

لا حلّ ما سوى الصدق، مع التفويض إلى أرحم الراحمين.

لا يستطيع أيّ إنسان كان أكثر من الصدق في طلب الحقيقة، بما رزقه الله من عقل وعقلانيّة ورويّة وبيان. غير أنّ الصِدق في حدّ ذاته ليس بضمان لبلوغ الحقيقة وتجنّب الخطأ. قد يكون الإنسان صادقا وعاقلا، ومع ذلك، كما سبق، يؤمن في نفس الوقت بخرافات تنافي العقل والعقلانيّة في أبسط مظاهرهما. لكن الله يأخذ الصدق بعين الاعتبار[38]، ويضعه يوم القيامة في الميزان، ويضرب مثل الّذين، من المسيحيّين، وقعوا، مغرورين بصدق وإخلاص، في التثليث، بل عبدوا حتّى أمَّ عيسى، عليه السلام ! :

"*وإذ قال الله : ياعيسى ابنَ مَرْيَمَ ! آنتَ قُلتَ للناس : اتّخذوني وأمّي إلهَيْن من دون الله؟ -- قال : سُبحانك ! ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحقّ. إن كنتُ قُلتُه، فقد عَلِمتَه. تَعلم ما في نفسي، ولا أعلم ما في نفسك، إنّك أنتَ علام الغيوب. ما قُلتُ لهم إلاّ ما أمرتني به : أن اعْبُدوا الله، رَبّي وربّكم. وكُنْت عليهم شهيدا ما دُمْتُ فيهم. فلمّا توفّيتَني، كُنْتَ أنتَ الرقيبَ عليهم، وأنتَ على كلّ شيء شهيد. إنْ تُعَذّبْهم، فإنّهم عبادُك، وإنْ تَغْفِرْ لهم، فإنّك أنتَ العزيز الحكيم. -- قال الله : هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم. لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها أبدا. رَضِيَ الله عنهم، ورَضُوا عنه. ذلك الفوز العظيم !* " (المائدة، 5 : 119).

هذا جواب الله لِعيسى – عليه السلام ! – في شأن مَن اتّخذوه إلها بعد موته. نفوّض إذن أمر من ضلّ من عباده، عن صِدْق، إليه، ونرجو لهم أن ينفعهم صِدقهم، إن كانوا من الصادقين، ومن "*عباد الله الصالحين*"، الّذين للخير فاعلين، والّذين نَشْمَلُهم في دُعائنا في آخر كلّ صلواتنا. و"*ذلك الفوز العظيم !*" والله له أهلٌ، بعزّته وحكمته :

"*إنّ الله لا يَظْلِمُ مِثقال ذَرّة، وإنْ تَكُ حَسَنَة، يُضاعِفها، ويُؤْتِ من لَدُنّه أجرا عظيما*" (النساء، 4 : 40).

"*وأنّ الله ليس بظلّام للعبيد*" (آل عمران، 3 : 182 ؛ الأنفال، 8 : 51 ؛ الحجّ، 22 : 10 ؛ فصّلت، 41 : 46 ؛ ق، 50 : 29).

---

[38] Nous renvoyons à notre opuscule *Islam et Dialogue*, Tunis 1972, chapitre 'La pluralité des voies du salut', où nous citons entre autre Ghazâlî.

هذا هو الله الّذي نفوّض إليه في النهاية أمر قضيّة الهداية والضلال. و يبقى السُؤال قائما في قلوب كّل الناس، بحيرة وقلق : هل كان في الإمكان أحسن مِمَّا كان؟ عَلِيٌّ أجاب : ذلك سِرّ الله، فلا تَتَهَوَّرْ !

Hubert Reeves astrophysicien *Je voudrais demander à Dieu* *Etait-il possible de faire autrement ?* (Le Monde des Religions, bimensuel, Paris, 2005, n° 9, p. 8) Allah répond *Mais Allah fait ce qu'Il veut* (Coran, 2 : 253). Woody Allen Cinéaste humoriste et acteur américain *La vie est horrible, mais le pire est qu'elle s'arrête.* 3Hubert Reeves *Le pire encore est qu'elle n'ait pas existé.* Moïse dit à Allah : *Pourquoi as-tu créé la fourmi ?* Allah répondit *Juste à l'instant la fourmi me demandait* *Pourquoi as-tu créé Moïse ?* Tradition musulmane Réponse d'Ibrâhîm, le Père de la foi *Il faut faire confiance à Allah* Je ne connais pas d'autre	هوبار ريفس فيزيائ جوّي *أريد أن أسأل الله :* *هل كان في الإمكان أن يكون غير ما كان* (عالم الأديان، نصف شهري، باريس، عدد 9 ص. 8) الله يجيب "*الله يفعل ما يشاء*" (البقرة،2 : 253). وودي آلان (سينمائي فكاهي ومُؤلف آميركي) *الحياة مُرعِبة، لكنّ الأتعس هو أن تنتهي.* هوبار ريفس : " *وأكثر من ذلك تعاسة، هو أنها لم تكن*" موسى قال إلى الله : "*لِمَ خلقت النملة؟* الله أجاب : "*في هذا الحين ذاته كانت نملة تسألني:* "*لِمَ خلقت موسى؟* (رواية إسلاميّة). جواب إبراهيم، أوّل المؤمنين : "*يجب أن نضع ثقتنا في الله*" لا أعرف جوابا آخر.

فهرس

توطئة : لمن هذه التذكرة ص. 6
الإنسان لُغز. ص. 9
قضيّة المعرفة والحقيقة. ص. 12
السفسطة(sophisme). ص. 16
النسبويّة (Le relativisme). ص. 18
الألاأدريانيّة (agnosticisme). ص. 22
النفاتيّة (athéisme) . ص. 24
النفاتيّة الانسلاخسلاميّة. ص.28
مثل يوسف الملقّب نفسه بالمرتدّ الحرّ. ص. 31
مثل جليلة المُلقِّبة نفسها بوركْوَا (Pourquoi). ص. 37
مثل عياض ابن عاشور، صاحب الفاتحة الثانية. ص. 46
المنافقون : بورقيبة وميثاق نداء تونس مثلا. ص. 51
الإيمانية عامّة. ص. 63
الإمانيّة اليهوديّة. ص. 66
الإمانيّة المسيحيّة ص. 68
الإيمانيّة الإسلاميّة. ص. 71
المسلم يدين دين الحقّ ويملك الحقيقة. ص. 84
أين الحقيقة ؟ ص. 91
إلاهنا مُتعالي وكامن . ص. 97
قضيّة الهداية والضلال. ص. 104

الاِنْسِلاخِسْلامِيَّة

كثيرا ما استعمل هذا المتصوَّر، وهو من نحتي، وكثيرا ما يرد في هذا الكتاب، وكثيرا ما أسأل عن معناه. أقول : وجدت هذا المتصوَّر ومعناه في قوله تعا لى : " *واتْلُ عليهم نبأ الّذي آتيناه آياتنا، فانسلخ منها. فأتْـبَعَه الشيطان، فكان من الغاوين*" (الأعراف، 7 : 175).

الانسلاخسلامية هي الانسلاخ من آيات الله بعد معرفتها. وقد يكون المُنْسَلِخ منها، ونسمّيه انْسِلاخِسْلامِيّا، نُفاتيّا (athée)، وقد يكون لاهوتيّا (déiste)، أو غير ذلك، وكلّهم سواء، وكلّهم أحرار فيما يختارون، وكلّهم لهم الحقّ في اختياراتهم، وفي التعبير والدفاع عنها، مهما، في نظر المسلم، أتْـبَعهم الشيطان وخدموه، ومهما كانت غوايتهم وتلبيسهم على البسطاء وغيرهم، ما سوى في النفاق.

وكذلك المسلم حرّ. وهذا ما يفرض عليّ، كلّما وجدت فيما أقرأ وأسمع، الانسلاخ عن آيات الله، خاصّة عندما يكون مشفوعا بالنفاق والبهتان، التنبيه إليه، وكشفه وفضحه، والتحذير منه وخلع القناع عن المقنّعين. ولن أقلِع عن ذلك.


9 789938 140521

الثمن : 12 د